

من دفتر العشق والغربة

● هاتف

● هلاتها

● أماكنها

● من رحم إلى رحم

إلى
أمد على أبد.. ففقت
فيه وما زلت!

هاتف

أحببة قلبي وان جـرتـم(*)
على فـكـل المـنـى أنـتـم
رحلتـم وفـى القـلـب خـلـفـتـم
لهـيـبـا فـهـلـا تـرـفـقـتـم
واودعـتـم يـوم ودعـتـم
بـاحـشـائـى نـارـا واخـرـمـتـم
نوبة العشاق
ميزان درج العشاق

(*) جميع المقطوعات الشعرية في دفتر من أشعار للموسيقى المغربية الأندلسية. خاصة
نوبة العشاق.

فزعت فجمعت فجرا فكنت أهوى هوىاً.

تسارع خفقي، وتسابق نبضي، حتى وجفت، وخفت، ولكى
أتقى أمسكت على أنفاسي، ليل موغل، وصمت جاث، ونأى
سحيق، ومسافات قصية. أما ماسمعه فما زال صداه يتردد
فى سمعى، ويتوالى عندى، لم يول بعد بزوغ الصوت المادى،
الذى اجتاز كينونتى، ونفذ إلى لى، صوتها، نبرها، إيقاعها،
جرسها، لا يمكن أن أضل عنه أو يتوه منى، حضوره،
خصوصيته، تفرده، امتزاج الإيقاع الطفولى، المبتسم، المرح،
الصافى، بتلونهاته الأنوثية، أتلفت حولى، أوشك على تلعبس
حضورها القوي، الجاب ماعداه، دهمنى عندما دنا نومي،
وتميعت يقظتى، فاختلفت الحدود وامتزجت المشارف، يحدد
صداها، وجودها الحسى يضحج حولى، فكأنه أفلت من أسر
الكينونة، ومحدودية الإحاطة، عبر المسافات القصية، وفرض
المغاليق، والابواب، والحواجز، والسدود، والمخاfer، وانتهى إلى

مرقدى، أو انفلت عبر الفضاءات العلى، وندت منى فى مرقها،
فى سريانها. وعند محاذاتها حضورى الجثمانى أودعتنى
صيححتها ثم أفلتت مولاية. مغربة، شاردة إلى كل صوت عداى.

على مهل تستقيم دقات قلبى. تجتاز حبات عرقى مسامى
مفلتة. يشرق وعى مستوعبا ما يحدثنى. هذا مرقدى، وتلك
جدرانى، وذاك فراغى المحدود. رائحة جسدى، طيات فراشى،
كتبى التى أطالعهها قبل وسنى، تلك وحدتى، نفاذ غريتى إلى
ضميمى، وازدياد نايتى، وشدة بعدى عنها، ومر افتقادى لها.

أدرك بعدى القصى، أعيد رأسى إلى ذراعى، تتوالى
الثوانى فى صيرورتها، لكن.. لا يخف بهتى. ولا تنقضى
دهشتى، ولا يهدأ روعى. ماسمعه حقيقة، ليس إلا صوتها
الذى أعرف، أستعيده مرات فى يومى، فى سعيتى. فى سكونى،
وعند كسرى لأهجع. نادتنى، لفظت اسمى، وشيئا آخر من
كلمتين، استفسار؟ عتاب؟ نداء؟ ربما، كلمتين جامعتين، دالتين،
تحويان الخلاصة، لكننى لم أتبينهما، لم أستدل عليهما، لم
أقدر حتى على تلمس ملامحهما، معرفة دلالات حروفهما.

لكنها صاحت على.

من أين.. إلى أين؟

كيف؟

مامن إجابة تهدننى.

أحقا هي؟ أو أنه الهاتف الذى يباغت الخلق فى نومهم عند هذه الساعة الفعجرية، الندية، التى يكون عندها الوصول والإقلاع، الميلاد والموت. الفرق والطف، قديما قال من أتى بى إلى الدنيا إن الهاتف يعمق فى الفراغات العلا ليلا، يدرك البعض بلفظ أو جملة مختصرة دالة، ينبه غافلا، يوقظ نائما، لا يترك أثرا، لكنه يدع خشية وحذرا، وخوفا من مجهول لا يمكن سبر كنهه.

لكننى واثق، أنه صوتها، لم تحل الأيام والمسافات بينى وبينه. ربما استعاد الهاتف ملامحه، الصق ركبتى بصدرى، استعيد وضعى داخل الرحم مع وعى وإدراكى للبعد، تثقل على تلك اللحظات العسرة. لا أقدر خلالها على المشى، أو القعود، أو القيام، أو الالتفات، أو البكاء، أو النظر حتى. لحظات يكتمل فيها إدراكى ببعدها عني، أنها ليست فى متناول حواسى، أنها مستحيلة الآن، أنها فى ديار وأنا فى ديار، ودوننا مسافات شسع. أننى لا أقدر على استدعائها إلا بعينى مخيلتى، واسترجاع لحظتنا إلا بالذاكرة الكليّة، المحدودة. استعادة بعضها وليس كلا مما كان وجرى.

أرفع رأسى، كأنى أحقق إلى مرئى حاضري، صوتها الذى نادانى منذ لحظات يشبه ما أصغيت إليه عبر أول وآخر اتصال، بالضبط منذ أسبوعين.

عندما ودعنتى، رافقتنى حتى الحاجز الذى يجب الافتراق عنده، عندما حاذى خطوى خطوها، انعكس حضورى فى عينيها، تماسست أطرافنا، منحنتى جانباً جميلاً، أمناً، ولمسات من أصابعها الحانية، العطوفة على، مالت جهتى، برقت موجات عينيها.

مارأيك... لو اتصلت بى الليلة بعد وصولك؟

تطلعت إليها. أومأت مرتين، ثنت شفتها السفلى، مطوية بالعليا. أحببت منها ذلك عند إبداء مرحها البكر، قالت:

- سانتظرك..

نزلت بلادى فجراً، بعد تمام إجراءات الوصول، وتحديق العيون، والتطلع إلى السمات، سعيت إلى أحد الواقفين. استفسرت عن مكان أجهزة الهاتف. أشار وبل. تطلعت إلى الوقت، إنه متقدم ساعتين هناك الآن، يدنو فجر مضاربها الآن، أما ليلى فما زال فى صميمه، هكذا انتقلت من زمن إلى زمن، من حال إلى حال، استعدت طلبها المفاجئ، انحناءة رأسها، ابتسامتها، قالت إنها لن تودعنى دامعة أبداً، فأيام الانفراد القائمة كثيرة، بدأ إدراكى باكتمال النأى، وقوع الاغتراب. وأن ماكان مدركا منها بالحس، لم يعد ممكناً استعادته إلا بالمخيلة، انفطر شطر منى، وحتى أسترجعه لا أدرى كيف ستتحوالى الأمور؟ قال الضابط الشاب إن أجهزة الهاتف الصغراء تلك للاتصالات المحلية، أما الدولية فهناك فى صالة العساكرين..

تجاوزتها، والعودة صعبة، يبدو أنه لح حيرتى، وتعبنى، قال إنه من الممكن إجراء الاتصال من الفندق القريب من المطار، هناك مركز لخدمة رجال الأعمال، لكن.. لابد من قطع مسافة إلى الفندق، الوقت متأخر. والحقائب ثقيلة، أما رغبتى فى الوصول إلى بيتى فطاغية، أود الانفراد بذاتى واستعادة ما كان، ومحاولة التنبؤ بما سيكون.

مع بدء اليوم الجديد، امتزج يومها بزمنى، بوقتى، حددت فرق التوقيت. الآن تجتاز مدخل بيتها، تعبر الطريق المحفوف بشجر كثيف. عند نهايته بوابة حجرية عتيقة، تخرج إلى الشارع العريض، حيث موقف عربات الأجرة صفراء اللون كنت أتابع أنتقالها، توقفها هنا أو هناك، وصولها المكتب، احتساءها القهوة، على امتداد النهار أتعلق، أتشبث بالعلامات الغارقة، تناولها الغذاء السريع فى الثانية، انصرافها فى الخامسة، يحار.. هل مضت إلى والدتها؟، إلى صاحببتها؟ إلى بيتها؟ أم تنفرد بذاتها فى مقهى مجهول لى؟، ربما تخطو فى عالمها الصغير، شقتها المحدودة التى أحالتها إلى مكان فسيح بما وزعته هنا وهناك من أشياء جميلة، صغيرة.

إذ يأفل الضوء، ويكتمل الليل، لا أقدر على تحمل الصور وانتفاض اللحظات، أسعى خارجا، مزدحما، تواقا إلى عبيرها. عئذى يقين أنها ترقبني من مكان لا أدرك كنهه، يتحدد إيقاع خطوى، وانتظام سيرى. وجر زفراتى، مضيت إلى مكتب

الهاتف الدولي، طلب منى الموظف أن يدخل إلى المقصورة الضيقة، أغلقت الباب، أحكمته. لا أتقن الحديث همسا، كنت مضطربا، غير قادر على التحكم فى نبضى، لحظات وأصغى إلى صوتها. أتعلق به، أتركز فى الإصغاء، نستحيل إلى الفاظه وثوان معدودات، بعد أن كانت دائية، قريبة، مدركة لى، متوغلة عندى، تستحيل إلى صوت، يتبدد فى الفراغ، لايلمس ولا يمسك، لايمكن تقبيله أو تنسم روائحه، أو الاتكاء عليه سعيا للدعة. لكنه يصدر فى اللحظة عينها عبر وجودها. وهذا ما يخفف التياغى. وتلك النار الموقدة، بطيئة الخمود عندى.

عندما التقينا إثر فراق قسرى دام زمنا مقداره عامان وثلاثة شهور وستة أيام، عندما هلت على، وطالعتنى هيئتها، عندما مددت يدي واحتويت حضورها واستكانت إلى صدرى. واستكنت إليها، بزغ عندى الخاطر المشنوم.. إذن بدأ العد التنازلى لفراقنا، زمنى معها محدود، والعقبات لاتحصى، وما أمر به الآن يتحول إلى ماض، فلأنخر قبسا من هذه اللحظات، لاتخيل كيف يمكننى استعادتها، فلأتزود منها لأيامى العجاف، لقهر غريبتى فى موطنى، كأنها أدراكت عنى فى أول لحظات اجتماعنا، قالت، دعنا نعيش مانمر به، لاندري ماسوف يكون!

غير أن وحشتى إليها فى اقترابى منها أناخت على، وإدراكى أننى مفتقدما أفسد على أنيقتنا، لكننى حاولت، واجتهدت، وسعيت، غير أن دنوى لم يزبنى إلا بعدا، وتوغلى

عبرها، وامتزاجها بى لم يدفع زمن الفراق لحظة، فمقامى ليس على مقربة منها، وحضورى موقوت. مشروط، عيشها بعيد عنى، اسعى هنا، وهى هناك، إذا جنتها فأنا عابر، غير مقيم، وإذا وفدت على فهى مغتربة، الظرف صعب. والحال وعز، ولم الشمل دونه محاذير. هكذا.. وقفت داخل المقصورة. عرقى ينز لارتفاع درجة الحرارة، وتصاعد ذرات التراب، توطرنى محلوذية الموضع، رفعت السماعة منتظرا، مستوفزا متأهبا للتلقي.

أصغيت، تكتكات سريعة. متعاقبة، صمت، وشيش كوني غامض، ماذا يجرى فى الفراغات الفاصلة وعبر المسافات الممتدة والموجبات غير المرئية، والصمامات المعدنية، والأسلاك الفليضة، والنحيلة، الملتفة، ماشكل صوتى إذ ينقلب إلى نذبذبات، وأى طريق يسلكه صوتها، عبر الحجب، والمسافات، وهل تتماس موجاته بموجاتى، أم تتقاطع، تلتقى أو تضل عن بعضها. تقنى أم تبقى؟ يا حسرة وعرة، بعد اتحادنا ننقلب إلى ما لا يمكن رؤيته.

أصغيت إلى تموجات، كأن أبوابا سحرية غامضة تفتح أو تغلق، ماذا يجرى عبر الأسلاك والفضاءات والأجهزة المنصوبة؟

جانى صوت موظف المكتب:

- تفضل.. تكلم.

شبيت على أطرافى، صرت مستوفزا، متاهبا بكينونتى
الآنية، والمنقضية، والتي ستقلب إلى عدم، تهيات لأتلقى منها،
وتلقى عنى. أوصقت السماعه بأذنى، صارت جزءا منى..

تلك هى.. صوتها، مذاقه، طلته، ظله، تقلبات ألوانه، بكل
مايحوى، بما يرسله، وما يستودعه، وما يستثيره..

- نعم.. من؟

نظقت بحروف اسمى. غير عابئ، غير مبال بارتفاع صوتى،
انتفتت الموجودات كلها، لم يعد إلا هى، كل شئ غائب عداها،
ومحاولتى الإمساك بما لا يمكن إبراكه أو نيله أو الوقوف عليه.

- من.. من يتكلم ؟

تتسائل، تستفسر، تنطق من موضع أعرفه، بين جدران
ضمتنى وإياها، ومن فوق فراش احتوانا سويا، وفوقه بسطت
حدائقها، وأباححت لى مروجها، منحتها نضجى واشتمالى.
ترقد، تقف، تنحنى؟ مرتدية ؟ متجردة، تجلس إلى مكتبها
الصغير، تتأهب لعبور ليل يعقبه صباح بنونى؟، من جوار
الهاتف أصغيت إلى صوت المطر عندما بدأ نزوله آخر الليل،
فأصغيت. وتجدد انتشائى، وتساعد إحساسى بالقرب، مع
التوحد الأكم فاقبلت أسعى من جديد حتى ابتسمت متعبه
بالنشوة، ناطقة بشكوى المتعة، أنهكتنى. ولم يزرنى خدرها،
وغزارة المطر إلا إمعانا فى اللجة، حتى صار وقتا يحتذى

الوصول إلى مثله، والسعى معاً لإيجاد قرينه.

- من.. من يتكلم..

عصبية في صوتها، أكرر زاعقاً اسمي، يبرز خطأ ما، لا أدري مصدره، أو كنهه، أصبح فلا تسمع، وتصرخ فأصغي، سمع من طرف واحد، أو أنها تبدي، تتجاهل، يدب الشك عندي، أمي بمفردها، في لحظة صعب إدراكها أو توصيفها يقلت، ينقلب مبتعداً، يتحول إلى استدارات معدنية، وخفقات مجهولة، وإشارات ملفزة، وترددات خفية. يجيئني صوت الموظف..

«انقطع الخط..»

رجوته تكرار المحاولة، مرة أخرى، ثالثة، عبثاً، لامجاوبة، عند حد معين أدركني خجل فأنهيت الجهد، خرجت إلى الطريق خائباً، أدرج وأنا حسير، تتكاكأ على الهواجس، وهواجم الأفكار، هل سمعت صوتي، هل منعها عائق؟، أمضيت الليل أرقاً، ساهداً. في الصباح وقفت أمام موظف آخر، ضغط الأزرار، وأعمل المفاتيح، ثم تطلع إلى أسفا.

الرقم عاطل..

جملة تكررت في مسعى مراراً خلال الأسابيع التالية، كنت أمضى إلى نقاط شتى من المدينة، مكاتب اتصال، فنانق كبرى، في كل مرة تجيئني الإجابة، الخط مصمت، أخرس، عاطل، ما من مجيب.

شيعت الخطاب إثر الآخر، لم أتلق حتى الآن ردا، سمعت
عبر أيامي مهموما، مطرق الهامة، مثقلا بالانقطاع، مامن
مهدي إلا لحظات وصلنا، نوبات لقائنا، امتزاجنا، تفاهمنا، في
كل يوم يمر يتوارى موقف، يبهت، وقد يبرز آخر، أنام وهي
آخر ما يترأى لي، وأصحو فآلقاها داخلي، أوشك على تنسم
رائحتها التي أعرف، حتى حلت بي هذه الظهيرة، أو حلت بها،
كنت على وشك الدنو من المقهى الذي اعتدت أن أخلوف فيه إلى
ذاتي، أقصده في مواعيد أعرف أن صحبي يغيبون فيها..

فأنتني!

صوتها، سمعته بحواسي كافة، سمعي، وشمي، وإبصاري،
وقد رتقي على اللمس، لا يمكن أن أخطئه أبدا، لا أضل عنه قط،
نفذ إلى عبر ضجيج العريات، والطريق، وتدفق الحركة، وقفت
مبهوتا لا أنطق، خشيت الالتفات فآلقاها، عندئذ تقع المفاجأة
التي لا أدري مداها وأثرها عندي، خفت ألا أجدها فتبدأ
الخبية، ويتجدد الفقد، أثرت تأجيل اللحظة وجمودها، توقفت
مكاني، غير أن يدها لم تلمسني، وأنفاسها لم تتردد على مقربة
مني، على مهل استدرت، لم أر إلا امرأة عجوز تسعى، ورجلا
يتلفت حوله، كان الحضور قفرا منها، خلوا من أطياها، أما
صوتها الأنثوي السوسني، المغموس في الرضا والود فما من
صدي حتى! مضيت خائبا إلى المقهى. لا أدري كيف مرت بي
تلك الظهيرة، ولأيام تالية انعكس ما عندي على ملامحي، فبدأ
الاستفسار من الصحب.

.. مالك تبدو مهموما ..

ولا أقدر على البوح، أو إبداء الشرح أو التفسير، كيف أفصح عن فقدى، وصعوبة هجبرى، مضت الأيام بى، ومضيت بها، لا أنا انثنت، ولا بادرة لاحت، لا الهاتف نطق، ولا الجهد أثمر، حتى استبهم الأمر، وتعثر وقتى، وكلت مساعى، غير أن تردد صوتها من مصدره الخفى عنى استمر يفاجئنى، فى هجوعى، فى تطلعى إلى الأفق الممتد، فى ثباتى، فى رحيلى، فى قيامى، فى قعودى. فى أوقات لم أتأهب لها. لم أعد لها العدة.

مرة تنادينى باسمى، فتوقد داخلى الجذوة، ومرة يسبح همسها داخلى منطلقا من مصائر خفية، معيدا إلى بعض لوازمها التى أحببت وسعيت إلى تكرارها، عندما كنت أطلع إليها صامتا، مرغما على السكون بتأثير دفقها، ولانعدام قدرتى على ترجمة هديرى إلى ألفاظ منطوقة، عندئذ تميل تجاهى، تسأل:

.. ماذا؟؟

سؤال معتد، مغلف بغيم، واعد بأنهمار سيل إذا صادف الجواب المرضى، أقول باختصار، إننى عندما لا أقدر على البوح، يكون المعنى عندى عظيما جللا.

عندما كانت تستحسن أمرا، تومئ برأسها مرات سريعة، وتقول:

هذا طيب..

عندما وقفت في فراغ حجرتها. شامقة، حاضرة، مرمرية،
كونية الفيض، تسالني عما يروق في عيني قبل رسوها إلى
جوارى. هذا الثوب أم ذاك ؟ تبذل، تغير حتى يلوح منى ماينم
عن رضاي.

عندما تدفق ضحكاتها، الملح في تتابعها شجنا فيه صدى
بكاء عسر، عندما تنطق بعربية متعثرة:

«إن شاء الله...»

كل ماجرى، ماكان، تلخص في هذه الأصوات المبهمة، دائما
انتظرها، عند ذروة توقعي لاتأتينى، وعندما أتلهى، أو أفرغ إلى
أمر غير ذى علاقة تدهمنى، فأحاول جاهدا التعلق بما لايرى،
اتقاء لعدم أخشى أن يدركنى فيذرينى..

فبراير ١٩٩٠

هلاتما..

هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما.. هلاتما..

رأيت الهلال ووجه الحبيب
فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر أيهما قاتلي
هلال الدجى أم هلال البشعر
فلولا التـورـد فى الوجنتين
وما راعنى من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب
وكنت أظن الحبيب القمر
فذاك يغيب وذا لا يغيب
وما من يغيب كما من حضر

نوبة الحجاز الكبير

• صنعة متقارب

مستهل..

.. إنما متعلق الأمر بترتيب خارج عن طوعى، ونظام لم أسهم فيه بنصيب، زمن يمضى، وقت يسرى، عصى على الرصد أو النيل، مع أنه مدركى وبالفى عند الشهيق والزفير وما بينهما.

هكذا.. لا القاهها إلا فى رحيلى، وإن كانت من عناصر إقامتى، وتحريك ديمومتى. أنا فى جهة، هى فى أخرى، ما بيننا شسوع مدى، عوامل شتى من نظم جغرافية وتاريخية باقية، وسياسية موقوتة، ترتيب ومصادفة، أثمرا لقامنا وأبتعادنا، فترات وجيزة، مارقة، مرجع القياس أوقات تباعدنا لغلبتها.

فى إحدى رسائلها خطت مانصه:

«إن الحياة تمر بسرعة، ومرات اللقاء نادرة والوقت بخيل...»

عبرت عما جال عندي وصال على، لو تكررت مرات اللقيا
فى الآتى، قبر الماضى، لو تجاوزت الأوقات المتباعدة واتصلت،
فما هو إلا نزر يسير لا يشفى الغليل!

سألتنى صاحبة لى،. مطلة على أحوالى. ملمة بعنصر
اشتياقى:

«كيف يدوم العشق مع غياب المعشوق؟»

واجهتها صامتا، حائرا، مامن إجابة مقنعة. شافية. شرعت
فى القول إن حضورها مع البعد يكون أحيانا أقوى من
تجسدها الحسى عند دنوى وتنسمى شذاها، وارتشافى. وإن
اشتياقى مع القرب يتأجج، وقد يقع منى الشرود والفتور. غير
أنى لزمتم السكون، كيف ستلقى هذا عنى؟

أما واليأس من الاجتماع واقع الآن، فإننى أجتهد
لأستعيدها جملة وتفصيلا. يقوى حضورها عندي فتعشى
ذاكرتى لشدة السطوع، وتآلقه حتى لأطرق مغمضا عينى.
غاضا: أملا تخفيف همياته على.

أحيانا أخرى، وهذا غالب، طاغ، أجتهد محاولا الإلمام بقبس
من حضورها الذى ولى، من سريانها الذى كان، من دفقها، من
تفريدها، من حنوها على، من إلمامها بداخلى، من إسراكها
سكناتى، بلوغها مراحل، وفهمها عنى بالنظر مالم يدركه
الآخرون بالشرح والتأويل والتفسير.

كثيرا ما يطيش تصويبي، ويضل قصدي، ولما كانت أيامي
تميل إلى أصيل غروبي، مامضى أكثر من المتوقع الآتى، مع
ثقل الحمل، وتبدل الزمان، وشح الأنس، لذلك عزمت، وتوجهت،
غير خاضع لترتيب، إلا ماتمليه قوة الخاطر على، وتوهج
الشوق، وانبعاث الحنين، بعد أن صار منفاى فى دار إقامتى.

أما الغرض من هذا كله، فاستحضار المحبوب ولو بالمخيلة،
وتثبيت ما قد يرد على اليوم، وأعجز عن استعانتى غدا، دأبى
المشاهدة وغايتى القرب، غير أننى لما لقيت الشوارد متناثرة،
وشظايا الوقت متنافرة، أثرت للممة ماتباعد، لعلى أتى منها
بقبس، هكذا تحدد الأمر بثلاثة روافد، أماكنها وأزيائها غير
أننى أبدا بذكر هالاتها.

* * *

.. عصر.

ضوء واهن، مر وحن بستائر شفافة مسدلة، بقايا غير
منظورة لآخرين عبروا الزوايا والأركان، مابين الفرجات التى
تفصل بلاطات الخزف، داخل الصوان الأربعينى أو الثلاثينى
العتيق. فراش ضيق، وثير، ناصع، ترى.. كم توسده قبلى؟ أى
جهات قصدوا وأى أزمنة أفلتت بهم؟

سقف مرتفع، رائحة ظل مقيم، جدران فاصلة، وإدراك
عندى للرسم، للوصول، أما الطريق العريض. الهابط من المطار

إلى المدينة عبر الغابات الكثيفة، جعدة الخضرة. فيبدأ عندي وينتهي إلى، هذه العمارات، تلك النواصي، المداخل العريضة، لافتات المخازن، محطات الحافلات، مقاعد الحداثق العامة، النصب التذكارية فى الميادين، ينتسب هذا كله إليها ويمت، هل تطلعت إلى هذه الناحية، هل ألم بصرها بتلك الشجرة، هل خطت فوق ذلك المرء؟ ربما تعلق نظرها بهذا المنحنى.

ربما يعنى لها هذا المر المؤدى معنى، ربما يستثير عندها رؤيا كامنة، هذه الواجهات، كم توقفت أمامها، كم مرة عبرت هنا، أى شئ توقعته هناك؟

ربما أطلت من إحدى هذه النوافذ العديدة، المتشابهة، المتجاورة، المترصة، الصارمة، أين سعت شابة؟ وأين حبت طفلة، أى حدائق أثارت بهجتها، وأى نهارات أينعت الأمل أو أثارت الذكرى.

كل مايقع عليه بصرى ينتسب إليها. إدراكى هذا يضيف على حضور المدينة الممتدة الضخمة ظلالا ودرجات من الضوء والمشاعر، هى المقصد، والنبع، ومرجع البديهيات. من الطابق السادس أطل، أدرك الرصيف المقابل، حافلات تندفع، تتوقف، مارة يسعون، نساء طاعنات، أخريات شابات، صبية، فى كل منهم شئ منها.

نهار باق رغم رحيله، فى موطنى اكتمل الغروب منذ ساعة، يستمر مكث الضوء هنا فى شهور الصيف تلك، حتى بعد

غياب مصدره الكوني، فضوء ولا شمس، ونهار ولا نهار، هذا
شان بلدها الشمالى، فما أغرب!

هى هنا!

فى هذه المدينة. هذا التكوين، ملامحها، قسماتها منبثة فى
حضور المباني، وتقاطع الطرقات، وغرية النواصى، وسعى
المقيمين، ومرور العابرين.

جئت مرتين، الأولى مع بدايات الخريف وتعري الغصون من
أوراقها ويده شحوب الكون، والثانية مع السبات الشتوى،
واكتمال الكمون، وانغلاق الذات على مضامينها.

إقامتى الآن صيفية، انفراجة أفق، وإسفار ويوح وتصريح،
يبقى المعنى ناقصا طالما لم أستدل عليها بعد، كافة ماسبق
نقاط تمهيد، إقلاعى، وصولى، عبورى بوابات المراقبة. نظرات
فاحصة، كتابة الإقرارات، تلهفى، خففى، توقعى رؤيتها بغتة،
ألم أنبئها قبل شهر؟ ربما لم يصلها خطابى. ربما لم تعبأ..

أقصيت الخاطر، لم يهن توقعى، حتى بعد اجتيازى آخر
البوابات، تقدم سيدة فى منتصف العمر، زجاج منظارها الطبى
غامق سميك، قالت إنها مكلفة باستقبالى، باصطحابى. وددت
الاستفسار منها، مع أنها لاتعرفها. لم تلتق بها، لكننى رغبت
نكرها بلسانى، غير أننى كتمت.

لم أخبر بمطالعتى ملامحها عبر السحب والغمامات، والمدن
القصية، وتحرك لحن قديم عندى، فإلى الشجن نزوعى، خاصة

إذا استدعيت بالمخيلة من أهوى، لم أنبئ بدافعي الحقيقي
للمجىء، تلهفى للرؤية، توفى إلى أوبة مرتقبة تجمع متفرق
الشم.

دائما كنت فى مداها، تتطلع نحوى من موقع خفى لا يبين،
فإذا مشيت، كيف ترانى؟ وإذا نطقت: كيف تسمعنى؟ وإذا
شردت أنتبه حتى لا أتوه عنها. إذا خلوت ونأيت عن الخلق،
وتحدد عالمى، يقوى على حضورها، فأوشك على لمس أذائها،
وتنسم عيبرها الكلى وتقلبته، عند النظر، عند التدانى.

يهن الوقت، كيف تمضى أول ليلة بدون سماع نبرها على
الأقل؟ مرة أخرى أقوم إلى الهاتف.

صوت أبيها، على مشارف الهرم، به ظلال من فترة بعيدة.
يعرفنى، فى صوته مودة، كافة رسائلى وجهتها إلى عنوانه،
أبدى ترحيبا متمنيا إقامة سعيدة، إنجليزيتة ضعيفة مع أنه
يتقن ثلاث عشرة لغة. معظمها غير شائع، أو منقرض. فى المرة
الأولى أخبرته اسم الفندق. هذه المرة نسيت أيضا ذكر رقم
الغرفة، لم تتصل به بعد، مازال فى انتظارها.

أخشى مفارقة الغرفة، لعل وعسى!

يستمر همود الهاتف، أطلع معاتبا، ولتبيد الوحشة،
وللتخفيف نطقت: كف عن صمتك!

لو يتردد الرنين، حتى وإن أخطأنى الطالب. لكن... من؟ من
سيسعى إلى الآن؟ معارفى - وهم قلة - لم يستدلوا على

مكاني بعد، عزمت وقررت ألا أرى إنسانا قبلها، فمن أجلها
مجبني، وصوبها سعبي، ماعداها غطاء وحجة.

انقضاء عام أو أكثر بعيدا عن ديارها في جانب، وفوات
دقيقة واحدة بدونها وأنا على مقربة في جانب آخر، في الحال
الأول الأمر قسري، أما الآن.. فأى حجة، أى تبرير، انعدام
اللقاء على القرب أشق من غيبة أعوام متتالية.

تبديل ملابسى أول علامات قنوطي، كذا لجوئى إلى الفراش
متمسسا بدء هجوعى، يحط على تعبى، صدودى عن الطعام
قائم، لم أفارق الغرفة خشية أن تطلبني أثناء غيبتى.
كمدت.

بدأت مرحلة انتقالى من اليقظة إلى النوم، مستسلما إلى
كافة هواجسى وظنوني، هل أبلغها والدها حقا؟ الرجل وعدنى
مرتين، بدا متفهما، مطمئنا لى، إذن.. لماذا الصمت؟ أيعوقها
أمر؟

ماهو؟

ريما لم تعبأ، لم تبد اهتماما بتأثير من فتور الهمة، كيف
يدوم العشق مع البعد؟، ريما خرجت إلى نزهة، إلى سهرة مع
زوجها، ريما مع صاحب أجهله، لم ألم بتفاصيل كافية عن
أيامها، عن علاقاتها. عن سرياتها هنا وهناك. لم أطلع إلا على
عموميات. منها جفوة الصلة مع من ارتبطت به فى سن مبكرة،

حتى أنها تابى الإنجاب حتى الآن بعد مرور ست سنوات
وبنها من الثلاثين، قالت لى إنه سن مخيف بالنسبة للمرأة،
استعيد شرود نظرتها، لحظة نطقها المعنى والعبارة أرى فناء
فسيحا مسورا لكننى لا أنكر المبني، تمرق رائحة بعيدة تمت
إلى فندق قديم، عربة تتوقف، وسحب تتجمع منذرة بمطر،
لحظات شروق مبهمة، ركاب مرهقون داخل قطارات تسعى فى
عمق الليالى المنذرة، أرصفة محطات خالية، فتاة متفجرة
بالأنوثة تمشى أمامى، أكاد أقتنص شذاها، طريق ضيق مظلل،
واجهة شاهقة، زخارف، زجاج ملون يتخلل جصا، مقهى،
صبي حائر، أين، أين؟ رنين، رنين، رنين.

انتبه متفخضا متسارع الخفق، ظامنا، أطلع إلى جهاز
الهاتف. أول رنين يتردد فى فراغ الغرفة العتيقة، فى فراغها
العبق برائحة غامضة، خفية المصدر، للحظات خشيت رفع
السماعة، لكن خشيتى أن يكف تدفعنى..

انطق مبادرا..

مامن صوت، مامن مجيب، صفارة متقطعة تتردد، إشارات،
أصداء لا أدرى مصاندها، أخشى ركض نبضى، أبطئ
أنفاسى، تدرى نعاسى، من.. ترى من؟ هل يريد أحدهم التأكد
من وجودى فى الغرفة؟ جزء من مراقبة الأجانب، أو اتصال
ضل طريقه إلى؟ خواطر متتالية، احتمالات شتى، لو أصفى
إلى الرنين مرة أخرى، حتى وإن تكرر الصمت، لكن.. تتوالى
الثوانى، الدقائق مخلقة عندى الحيرة والبلبال.

طار النوم عن عيني، كثيرا ما رددت أُمي تلك العبارة بنصبها
في الزمن القديم، نطقتها بصوت مرتفع، إيقاع مماثل لما
سمعته منها، حتى بدا وكأن صوتها ينبعث مني. مططت
شفتي.. كأنني أشرع في مخاطبة آخر لا يبين يمثل أمامي.

كم انقضى بالضبط؟

كم.. مقدار الوقت الفاصل بين الرنين الأول والثاني. هذه
المرة لم أنتظر. على الطرف الآخر، من مكان أجهله، من خلال
وضع ما، تسلمت بريد صوتها، هي.. أعرف تضاريس نبرها
مهما خفت أو نأى. تلك تموجاته، ظلاله، مذاقه، فكان شهورا
عديدة لم تنقض، ومسافات لم تفصل، وببد دونها بيد لم تعبر،
قالت إنها بذلت جهدا حتى عرفت رقم غرفتي.

بعد نطق الجملة الأولى صممت لحظات، قلت إنني غير
مصدق. فوجئت بسؤالها:

- ترغب رؤيتي؟

صحت:

- لهذا جئت..

قالت:

- إذن.. الآن.

نطقها مختصر، دال، حازم، أجبت منساقا.

- أين.. كيف؟

قالت إن الليل موزل، الثانية صباحا الآن، حضورها إلى
الفندق صعب، لكن هناك مخزن مشهور للبضائع، مجمع
ضخم، مجمع ضخم يعرفه سائقو عربات الأجرة، قريب جدا
من بيتها..

- لحظة..

ورقة، قلم، كتبت ماتمليه على، قالت:

- بعد ثلاثين دقيقة ساكون أمام المخزن..

كررت:

- بعد ثلاثين دقيقة..

تدفقت، وقفت عاريا لثوان تحت المياه الباردة، تطلعت إلى
سترتى التى سألها بها، أحكم ثيابى بأصابع مرتعشة، جواز
السفر، هل أترك النقود فى الغرفة؟

لا.. من الأفضل أن أصحب ما أخشى عليه، أخرج مجتازا
الممرات الطويلة، الأبواب مغلقة على أسرار شتى، أصوات
صادرة من إحدى الغرف، فى الصالة الرئيسية تتمدد مشرفة
الطابق فوق أريكة مستطيلة، ابتسم معتذرا، تتطلع إلى دهشة،
مستديرة الوجه، شرقية الطلع، متصلة الحاجبين، سلمتها
المفتاح. تناولت البطاقة الصغيرة التى لا يمكن لى اجتياز البوابة
الخارجية بدونها.

برودة منعشة. ساحة ممتدة شبه خالية، ثلاث عربات آجرة
فى الانتظار، اتجهت صوب سائق قدرت تجاوزه الخمسين،
رحت أنطق العنوان، اسم الشارع، المحل. كتبتّها بحروف
عربية كما سمعت منها حتى يسهل على ذكرهما، هز رأسه
مرتين، جلست إلى جواره، بعد استدارته استقبال ليل المدينة
خافت الضوء، كثيفة الأشجار، تنوء طرقاتها فى العتمة، مبان
ضخمة لكن مصمتة.. أجهل الدروب والمنافذ، أيضا الوجهة، لا
أعرف أى سبل مؤدية. أظا هذه النواحي أول مرة، لم يسبق لى
المورد ليلا أو نهارا، أجهل لغة السائق. لا أستفسر إذا توقف،
أو اذا أبطأ، إذا سلك هذا الشارع ولم يعبر ذاك، لا أعرف أين
الموقع على وجه التحديد، ولا المسافة التى تفصله عن الفندق،
لم أعرف إذا كنت أمضى يمينا أو شمالا، تداخلت على
الجهات. أوغل ليلا صوبها، لا يعننى مايمكن التعثر فيه.
مايمكن أن يعيقنى. المخاطر المحدقة، أتحوّل إلى كينونة
متطلعة، متلهفة، اتسائل، كيف ستبدو؟ كيف سيقع بصرها
على، هل أتحمل انبثاقها عندى، قوة وروده على، أى كلمات
الفظ، أى نبر أتكم، أى حوار يجرى؟

تقل السرعة، فى حركة السيارة وعد بالوصول، بشرى
بالقرب، يتطلع السائق إلى المباني، يتوقف قرب مظلة، محطة
حافلات عمومية. يشير إلى بناء ضخّم، مستطيل، عريض
الواجهة والنوافذ، تعلوه لافتة تضى بلونين أزرق وأحمر، إذن..
أصل إلى الموضع المحدد.

عربة شرطة تمضى متمهلة، يضوى المصباح الأزرق فوقها
فى حركة دائرية، تتوقف على مقربة، ينزل منها جنديان
يتفحصان شيئاً ما. وجودهما على مقربة وتحسسى جواز
سفرى فى جيبي يبعث عندى ثقة هجير ليلي وموضع لم
أتوقعه، رغم تأخر الساعة إلا أن الحركة غير معدومة، شابان
وامرأة يمشون فى الاتجاه المقابل.

لم أفارق العربة. تطلعت إلى السائق، أشرت إلى الساعة.
إلى الخارج، صوب الجهة التى جاءت منها وكأنى كنت أعرف،
ما أثار عجبى أننى لم ألقت إلى الجهة الأخرى قط.

حافلة تتوقف أمام المحطة، لا ينزل، لا يصعد أحد، لو
انتظرت تحت المظلة فلن يلفت ذلك النظر، الحركة تستمر حتى
هذه الساعة المتأخرة، ألم بالمكان كله مع أن الليل وظلاله الثقيلة
وكثافة الأشجار تخفى عنى الكثير، موضع لم يدر بخلدى أننى
بالغ، فوق نقطة منه سنلتقى، كم عبره قبلنا وكم بعدنا؟ لو
مررت به بدون ترتيبها لما عنى شيئاً بالنسبة لى، لكنه منذ
انتظارى هذا سيمثل بذهنى ويعلق. كيف سأستعيده، فى أى
لحظات من صحوى أو نومي سيرد على. هذه المباني، تلك
الأشجار، الحشائش الخضراء التى ينعكس عليها ضوء
النيون، البلاطات المربعة المتساوية، الواجهات المتشابهة، أعمدة
الإضاءة القديمة، المصائر وراء الجدران، الناس الذين أجعلهم،
السائق الصامت، لا يعرف التراث الكامن عندى، موقع هذه

اللحظات مني، غريب أمرى! يحل بى هدوء، تنزل على سكينه،
كأننى أرقب الوقت من خلال شخص آخر أعرفه ولا أعرفه،
عند دنوى من اللحظات الفاصلة يبدو ما سأشاهده، ما سأمربه
وكأنه يخص غيرى، حتى إذا فارقت ونأيت وصار وصولى
إليها صعبا. وإدراكى المكان مستحيلا، عندئذ.. استعيد أدق
التفاصيل، أعيشه مرات، تثقلنى المرثيات المستعادة حتى لا
أقدر على تحملها فأفارق مرقدى أو مجلسى، أنأى عن
صحبتي، كأن انتقالى من مكان إلى آخر يخفف ويسرى.

مالى، موزع، مذكرى، ضائع بين استعادة ماكان. والتطلع
إلى ماسيكون، حتى إذا تحقق الأمر أنظر إلى مايكون من
موقع زمنى مثبت، بعيد، أحض نفسى على الاستغراق، التطلع
صوب الآتى.

أوشك على النظر إلى أعمدة المصابيح، أصفى متلمسا
دبيب اللحظات التى تعبر المكان أو يعبرها.. لا أدري،
ماموقعها من الزمان؟ أى مواضع تتخذها النجوم القصية
الآن؟ أى مدار ينتظم فيه الفلك، فى أى حيز تحوم أرواح
الراحلين؟ تلوح لحظة حنين إلى شذا قديم، خفى المصدر،
أوشك على.. على.. هى..

انبثاق، انبلاج، يتفتق ظلام الليل عنها، تحديد البداية وعمر،
غير أنى الممت بانبثاق خطوها من سور العتمة، رأيت إقبالها،
اقترباها، خطوها، تنفتحها نصوى، لمدى طويل أمضيت الوقت
متوقعا ذاك الألوان حتى كنت أكل.

ها هي..

مائلة، شاخصة، تسرى، تسعى. تبلغنى كنباً جميل،
سترتها قدت من صوف أزرق، أحمر، أبيض، أسود. أصول
الألوان وجذورها، طالعها يلغى سائر المكونات، أطلع، أوشك
على الجموح لكننى لا أحن ولا أحن.

أنتبه إلى ثباتى وإقبالها!

وقوفى ليس من علامات الأدب مع المحبوب حتى وإن
جمدنى البهت، أواجهها بكافتى. بكلى. اكتمالها يحو ماعداها
خاصة عندما رست عندى ورسيته عندها، جثوت، مستسلما،
راضيا، متأهبا، محاولا استيعاب فاتحة هلاتها فى دورتها
تلك..

- ٢ -

«مكان محدد، مطروق، موضح على خرائط المدينة، ساحة
منبسطة، مبلطة بالحجر، تمتد أمام الحصن القديم، مقصد
الزائرين، ملتقى أجناس شتى، علامة رئيسية بالمدينة، حددنا
الباب الرئيسى القريب من النهر، أما الوقت فتمام الواحدة،
مجرد نقطة لقاء، بعدها نمضى إلى مقهى قريب، هناك تقدمنى
إلى زوجها، لم أقتنع باللقاء المقترح، هذا مخالف لكافة ما جبلت
عليه، لم أدر كيف ستنتم المواجهة. كيف سألتصرف، وبدت
استبعاد هذا الترتيب، لكنها أصررت. قالت إن حياتها تمضى

فى خط مواز له، وأن الفتور واقع منذ مدى، ومايجرى عندها لاتعتبره سرا، ولا تريد إخفاءه. لماذا تكتب؟ ليس عندها إلا المصارحة، حتى يكون مايكون، قالت إنه كان يمضى أجازة فى الريف عند صاحب له، كتبت إليه تنبئه بوصولها، بعد عودته جرت محاورات عديدة، كنت أنا موضوعها ومركزها، عسر على الفهم، وعندما أبديت تحفظى قالت:

- من الأفضل أن يتم كل شىء فى الضوء.

أتطلع حولى، لنصوع حضورها أعشى عما عداها، لا أتوقف عند ملامح أخرى مهما بدت مبهرة. ليس مثلها مثل متفردة. بعد خمس دقائق تلوح، أحرص على وصولى مبكرا، هى يجب أن تنتظر لا أن تنتظر. أدور حول المبنى، أقف عند الركن، خلف العامود الرخامى، أود مشاهدتها قادمة، مطالعة ظهورها على غير علم منها، رصد انتظارها، قلقها، تصرفاتها، تجيء دائما فى مواعيدها. دهشت.. كيف تضبط حركتها مع استخدامها المواصلات العامة، ومجيئها من مسافة بعيدة، ترى من جاورها فى المركبة، من وقف على مقربة، من دنا ومن نظر؟

- تختبئ؟

تلمس كتفى، أستدير، تتلأأ عيناها، تضوى بحبور إنسانى نادر، بريق هادئ، تألق لايمكن لهذه اللحظات أن تحتويه. وتلك المعانى، أومى برأسى غير ملم بما أريد التعبير عنه، انبهارى، وقع المفاجأة؟ مجيئها من حيث لا أحتسب؟ أو أساى لإدراك

نوال اللحظة ومروق المعنى، أو لعجز النطق عن إسعافى. أم
لأن ألقها وفيضها غمرانى، مع وهن القدرة على التصريح،
كدت أتسبب خفقا مع دوام تطلعها.

ترفع حاجبها مع انفراجة يسيرة من شفيتها، وهذا تكوين
يدنو بها من سر الزئبق، وسريان اللون فى المثلون، سبحانه من
جعل الإنسان قادرا على تغيير العتمة وتبديد الظلام، أما
الضياء فلا يمكن تحويله. أو تغييره، أو تبديله. تطلعت صوبى.

تتساءل بصوت منبعث عبر درجة أو طبقة يستحيل إدراجها
أو تعيينها:

- ماذا؟

بصدور نطقها عنها اكتمل سطور نظامها الخاص، لم أجب،
إنما استمرت حركة رأسى، متأنية، نائمة.

- ماذا؟

تنبعث عنى حيرة، كنت متبددا فى مواجهة هلتها المفاجئة
تلك..

- ٣ -

.. سطور بدون نهار، العاشرة ليلا والمساء خفى، اعتدت
ذلك. مرة أخرى أظا الموضع حيث أهلت على أول مرة، اقترحت
تسميته المكان التاريخى، صفقت بيديها مرحة، مسرورة. بيدى

وجهها الطفولى سافرا بخباياه، عذوبتها البكر لم تندثر بعد،
ما بين لحظة وأخرى تتبدل. تتغير. مرة طفلة وتارة أنثى مكتملة.
تضحك ولكن فى أصدائها نحيب لا يرى.

جنث مبكرا، أثرت المشى، إلى الاتجاه الذى قدمت منه،
أمضى حتى تقاطع الطرق، هنا افترقنا بعد لقائنا الليلى، قرب
مشرق الشمس، وطلوع الصبح، عدت إلى الفندق مكتمل
الطاقة، قادرا على الشروع مع أنى أمضيت ستا وثلاثين ساعة
بدون نوم، تماما كزمن فتوتى، عندما كنت أصل جهدا بجهد، لا
يدركنى ملل، ولا أهاب وقوع التعب وإدراك النصب، أينعت
عندى منابع ظننت جفافها منذ أمد، كلما استعدت فاتحة
هلاتها فى دورتنا تلك، يخف وجودى الحسى حتى لأوشك على
التحليق والطفو، استأنست بصوتى فكنت الشادى والمستمع
معا.

بعد مفارقتها بدأت استرجاعى لظهورها، لطلتها، لتوقعها،
لإشراقها الليلى، فرأيت مالم أقف عليه عند وقوعه، وفهمت ما
استعصى على لحظة نطقه، ونفذت إلى جوهر عبارات لن يبقى
منها بعد توالى الفترات إلا مضمون عام غير مفصل، لفظ
محدد، أو جملة أفلتت من النسيان، لهذا سأسرع فى تدوين
ماعلق أثر فراغى من تثبيت هلاتها خشية الاندثار.

ليتنى أدرك قانون الذاكرة!

ليتنى أقدر فأبقى ما أرب. وأستبعد ما يقض ويوجع، قلت

فلاهنأ بفيضها الذى مازال يغمرنى، عبير حضورها المزهر فى
دمى، الحق أنها لم تفارقنى، لم أضل عنها، بل إنها على البعد
أقوى منها على القرب لكن.. إلى متى؟

أسترجع نوبات عشقى، وأزمنة تتيى، فادهش وأحار، كيف
يذوى ماظننته لن يبيد أبدا، ويحل موضعه آخر، يمحوه حتى
يستخف المرء بما أوشك أن يقضى بسببه يوما، لهذا إقدامى
على التدوين محاولا الإمساك بشوارد الوقت، أما زمان الوحدة
والتأسى فقادى، أليس كل أت قريب؟

أمر الهويأ بالموضوع مرة أخرى، كانى ألم بالمعالم أول
مرة، لكن. كيف لم الحظ هذه الواجهة الزجاجية، كذا ألوان
المبنى، اللافتة. الأعلام الملونة فوق الممر المؤدى إلى المدخل، فى
الضوء تولد الموجودات من جديد، تتغير الهيات وتتبدل.

تهدى الصافلات من سرعتها، تتوقف، تمضى، حركة
تستمر، وتتصل، لن تتوقف أبدا، كذلك سعى المارة، واللقاءات
المرتبة، ونتاج الصدفة، والعبارات التى تلفظ، وتوهجات العيون،
وأخضرار الأشجار، وطرحها، ثم ذبولها، سيتصل هذا كله بعد
غيبتى، ستم الدورة، ولكن وجودى مختلف، مغاير، ناء، أما
هى فعيناها ستقعان على هذه المرئيات مرات عدة فى نهارات
وليال متعاقبة، لأدرى كيف ستستعيد أمرى، ولا كيف ستبدو
صورتى فى ذهنها، وأى أوضاع مثلت فيها أمامها ستحتفظ
بها فى أفق وعيها. كنت جاهلا، سأشكل عليه فى مناماتها،
كيف سأبدو؟ ومن أى جهة سأفد؟ وأى أصداء ستبقى عندها،

أى ألفاظ نطقتها على مسمع منها ستتردد عندها ويأى وقع
وأى نبر عندما أصير فى جهة وهى فى أخرى؟

أتجه إلى مظلة المحطة، أتوقف قليلا متطلعا إلى الجهة التى
تأتى منها الحافلات، تهب النسيمات، عند تطلعى إلى شابة
تمسك بيدها سلة ملونة.. يتردد اسمى.

هى..

قادمة، لكن.. من الناحية الأخرى، عكس الجهة التى أهلت
منها المرة السابقة، مسرعة تأتى، تميل قليلا إلى الأمام، الهيئة
التي أستعيدنها بها، إما على حافة، أو فى سموق علوى. يبرق
أنشوى ينشق ظله، مهفهب، مرفرف، أصبعبها مشرعة إلى
الأمام.

تتجاوزنى متطلعة، أتابعها دهشا، حائرا، إلى أى شىء
تشير بأصبعها؟ لكنها بعد تجاوزى بثلاث أو أربع خطوات
تنثنى راجعة صوبى، أثبت، لا أميل، لا ألتفت.

تنثنى مقبلة، رجة. مشعة. تتساءل:

سألم تر أبى؟

- لا.. لم أره..

ثم استدركت:

- حتى إذا قابلته فلن أعرفه.. لم التق به.

يستمر تلفتها، تقول إنه أحضر بطاقات دعوة إلى حفل موسيقى.

قلت إننى لحت رجلاً متقدماً فى العمر كان واقفا منذ عشر دقائق لكنه ركب عربة أجرة. تتجاوزنى بنظراتها. لم تستفسر عن ملامحه. تتلفت، تدعونى إلى عبور الطريق، عندما حاذيتها تطلعت إليها، تبتسم، فيما بعد تسألت، لماذا تسألت ولماذا مضت فى سيرها، هل قصدت التمرية على شخص ما؟

تقول:

- البيت قريب.

ينضج صوتها بالوعد أذ يتردد همسها:

- الليلة.. أنا بمفردى.

- ٤ -

لم أغف حتى!

لم أنم، أصغيت إلى تنفسها الهادئ، المطمئن، الآمن إلى جوارى، حاذرت القلب أو إبداء القلق الجثمانى حتى لا أزعجها، ولجت نومها بيسر، أما أنا فاستعصى على الوسن، ربما لاغترابى أو لهيبتى حضورها، واقتران عالمى بعالمها، مع أن تكوكبنا أمر وقع عندي بالخيال، فلكم طالعته، وتمنيته، وحرك عندي ماحرك، وعندما اكتمل فى عالم الحس وجلت وتهيبت فكان الأمر يخص غيرى.

منذ الفجر، لم يتوقف المطر إلا فى الصباح، قطرات ثقيلة،
متتابعة، تشتد حيناً حتى أظنه الغرق، أغمض مآقى، مزدحماً
بهلاتها والتي لم تتوقف منذ لقاءاتنا حتى تردد أنفاس النوم
المنتظمة.

عند انفرادنا فى المصعد الضيق، تطلعت نحوى، أقدمت..
قبلتها ممسكاً بذراعيها، ورفعت حاجبها محذرة، مشهرة
لحظها ودلالها، انبعثت من داخلها طفلة. مرحلة. مقبلة.

قبل خروجنا تطلعت إلى مشجب المعاطف، ينقسم كونها
الصغير إلى جزأين. إلى يسار الداخل مطبخ، تنصدره منضدة
صغيرة حولها أربعة مقاعد. أوعية مختلفة. مرتبة، منسقة،
القسم الثانى إلى اليمين، فسحح الحضور، ضيق المساحة.
فراش وثير، تضىفى احساسات باتساع المكان، إلى جوارها
لافتة قراتها بصوت مرتفع..

«الأمس مر إلى غير رجعة، غدا ربما لن يأتى، اللحظة هى
الآن..»

أشار أصبعى.

«هذا أنا..»

قلت إننى أردد عبارة مشابهة، أكتبها أثناء شرودى
وتسهيمى، لا أذكر أين قراتها على وجه التحديد. أى كتاب؟ أى
مصدر؟ لكنها لشيخ ساح فى البرية، سكن الكهوف، والأماكن
الموحشة، قال ما نصه:

«الإنسان بين لحظتين، واحدة مضت لن ترجع أبداً، وأخرى
آتية ربما لن يصل إليها..»

كثيراً ما أنقشها بعناية، أجمل حروفها، أكتبها بخيالي على
الفراغات التي أحرق إليها أو عبرها، عظم يقيني أن انجذابي
إليها لم يكن صدفة، وانتظامي في فلکها لم يكن عبثاً.

جلت، طوفت بنظري، بمشارف ذاكرتي، راغباً، أملاً في
حفظ الدقائق، موضع رقادها، مقعدها أمام المكتب، مراجع
دراساتها المصفوفة، صوان حاجاتها، أسطواناتها، أريكة
مستطيلة تحت النافذة، هذا فراغ يحتويها، السقف غير
المرتفع، مرسى نظراتها عندما تستلقي، تطلق العنان
لشطحاتها، لتأملاتها، كل يوم تقع عينها على تلك الجزئيات.
أنتبه إلى وقوفها.

تتجاوز فراغ الباب بسموقها، بتأجبها الداخلي الذي
يتخطى محدوديتها البشرية، يفيض حتى أكل عن احتماله، أو
الإلام به أو وصفه.

أستفسر، كيف تتحرك في هذا الحيز، أين مكانها المفضل؟
كيف ترقد؟ على أي وضع تستريح؟ حتى تتطلع إلى قمم
الأشجار المرتفعة؟

تصغى. نورانية الطلع، صامئة الحضور، أما غمازتيها فتم
بهما المعنى الذي لم أقدر على تفسيره، بملامحها تائر غامض،

قالت فيما بعد إن أى إنسان غيرى لم يهتم بالتعرف على هذا كله.

طفت المكان الذى ربما لن أشهده إلا فى الذاكرة، العجيب أننى لم أكن مستنفرا بسبب الانفراد. مع أن مجرد استدعائى لحضورها بالخيال المحض كان يؤجج حواسى. فكأننى تلك الرجل الذى سافر مسافة قصية إلى شيخ مهيب، عرف بصلاحه وتقواه. طلب منه أن يقيم فى خدمته سنة كاملة، لا ينقطع خلالها عن الصلاة والعبادة. قبل الرجل طمعا فى وصوله إلى سر تحويل القرب إلى تبر أصفر، بعد انقضاء عام استدعاه الشيخ، سألته: هل أنت على استعداد؟ سأخبرك بالسر.

عندئذ.. بسط الرجل يديه قائلا:

- كفى.. لم أعد فى حاجة إلى ذلك!

كنت محايذا، وكأئننى خارج الخطأ، كنت مولها، مشغوقا، متأثرا، ولأننى تخيلت مطولا ما أمر به، وقع عندى عدم تصديق لاستحالة ذلك زمنا طويلا.

تبتسم.

تشير إلى المطبخ:

- لابد أنك جائع..

المكان رحب رغم محدوديته، استند بظهرى إلى المقعد. من الثلاجة تتناول قالبيا من لحم مطحون، محفوظ، وسكينا، تبسط

الشرائح فوق رقائق الخبز، تسفر فى ابتساماتها، لفتاتها،
طلاتها الجانبية، هذا الفيض يهل على، مجهول المصدر، تارة
من صوتها، مرة أخرى من نظراتها، من نبرها، من فرد قامتها
فجأة، مع تراجعها فجأة، كنت مستكينا، هائنا، مراقبا لسريان
الوقت بيننا، لماذا الهلع، لماذا الوهج، لماذا القلق إذا كانت ماثلة
أمامى، على مقربة، فى المدى.

أكاد ألس ضيق المدى ما بين أمنيأتى وتحققها، راحت،
جاءت، عند تنسمى عبيرها الكلى لحظة مرورها قريبا أمسكت
يدها.

تطلعت راضية. باسمه. حطت فى نطاقى، وقفت فجأة، قالت
إنها تود أن ترىنى صورها، عادت إلى مرساها، قالت إنها
تتمنى اطلاعى عليها. راحت تقلبها، كنت ما بين تأملها وتجرع
عبيرها. موزعا، حائرا، هاهى طوعى وأنا طوعها، غير أن
هاجسا هنا مغبشا لحظات الوداد. كيف سأستعيد ما أمر به
بعد تجدد الفقد. وابتعادى، أدرك استحالة الاستحواذ، عقم
إدراك الإدراك، رحت أتأمل صورها، طفلة، شابة، والديها.
صاحباتها، لحظات أجازاتها، مناسباتها. وإذا أتأمل كل منها
أسأل ذاتى، أين كنت لحظة التقاط هذه أو تلك؟

فجأة قامت، لم تبد تفسيراً، لم تفه حرفاً، فتبعتها، قعدت
على حافة الفراش. تخففت من سترتى الصوفية، من حذائى،
عندما حاذتني متجهة إلى المطبخ أحطت معصمها بيدي،
أجلستها بجوارى، صدقت، تعلقت، تهدجت، كنت على شفا

عينها، طاقتان من ماس مصهور يشع ألقا، كنت أرى شرايين
وأوردة وشعيرات دفق الحياة التى تتخلل وجهها، شفيتها،
جبينها الأشم، كذا غمازتها فى سكونها، فى حركتهما،
مأقيا تقيض بالوداعة، مقلتاها تنطقان بالسكينة. بالطمأنينة.

تقول بنطق همسى، قادم من هناك:

- «ترغب الآن؟»

حركت رأسى نفيا.

- «لا.. ليس الآن..»

توقفت لحظتين، تابعت.

«أرغب من زمن بعيد، قبل أن نلتقى، أثناء قريى وبعدى،
وفى الآتى الذى لن أدركه..»

تهل على بهيئات لم أعهدا، لم أعرفها منها، هلات ذات
خصوصية، شمولية، علوية، تتجاوزنى إلى ماوراء حضورى
الآتى إلى زمن حضورى، وأفولى، أو تمردى وثورتى، وسعوى
إلى المدى.

كان نبضها يتماس بنبضى، فلا أدرك كلا منهما على حدة،
تنفرج شفتاها الريانتان، تطل ملامح من أسنانها، لأكنها، يزداد
اقترابى. ينفصل مكان حضورنا عما يتصل به. نعمن فيتجدد
خلقى..

.. بقايا مطر، خضرة مرتوية، للهواء شفافية ناصعة حتى ليرى، يوم أحد، المدينة هاجعة، حركة محدودة وسريان خفيف. درت عند المنحنى، طريق ممهد. رصيف عريض يتوسطه، نبتت الحشائش من الفراغات الفاصلة بين بلاطاته، مضيت متمهلا، واثقا أنني سوف أسترجع هذا الوقت مرارا، سألوذ به وأستدعيه تهدئة لى، وتصبيرا لقلبي إذ ينوء بالوحدة وثقل الفرقة، وغربة الظرف.

قبل خروجنا طلبت منى أن أتقدمها، لاترغب انصرافنا معا اتقاء ودفعاً لفضول الجيران، خاصة النساء منهن، أمام الباب رأيت امرأتين، الأولى عجوز، والثانية شابة، لم يلتفتا، لم يبديا اهتماما، لم تتوقفا عن الحوار عند محاذاتى لهما، كنت راغبا فى التحقق من ملامحهما، ألا يقيمان على مقربة منها؟ ألا تراهما فى أوقات متقاربة؟ ألا تعيشان فى البناية التى تضمها؟ مضيت متمهل الخطأ، هل سأعود إلى المكان مرة أخرى؟ درت عند المنحنى، التفت، لم تبد بعد. كنت مرهقا، متعبا، لم أغمض عيني منذ الأمس، غير أن تردد اللون الأخضر بدرجاته وبرودة الهواء الخفيفة، وخلو الطريق وتوقعى ظهورها، أثار هذا كله عندي دقا وحيوية.

هاهى.. متوحدة، منفردة، مامن أحد الإها، بينها وبين الشجيرات وشائج وصلة، لخطاها وقع، أصغى، هذا صابر عنها، كأنها تتقدم صوب خلاء ممتد، لم أنكرها ولم أرها بعيني

مخيلتي إلا دانية من حافة فاصلة، ابتسامتها تهل على، لتلك
الابتسامة تقلبات ومظاهر شتى، صعب حصرها، عسر
وصفها، لكن ابتسامتها تلك بدت لى مختلفة عما سبقها.

أدرك صلتها، اتجهت صوبها لالاقياها فى منتصف المسافة،
الأولى فى الصباح التالى لليلة اقترابى، وطوافى، وامتزاجى
الكلى، كل ماسيبدو منها له وقع مغاير منذ الآن، غير أننى
لمحت شيئا ما يؤطر هلتها الديمومية، استعصى على تفسيره،
ثمة اتصال وثيق خفى مابين شففتيها وعينيها، وحضورها غير
المدرک بالحس، أسرعت الخطأ، حاذيتها، تجاوزتها فى الاتجاه
المعاكس، لم ألفظ حرفا، كائن عابر، غريب يجهلها، انثني
لأتبعها، تقدمت، صرت إلى جوارها، بدأت نطقى من موقع
الاغتراب، كأننى لم ألتق ولم أصادف ولم أصغ..

— أيمكننى الحديث ياسيديتى؟

هلت على بتطلع جانبي، تستمر ولا تتوقف، قلت إننى عابر
غير مقيم هنا. جئت من بلد بعيد، من قارة أخرى، مسافات
قصية تفصلنا، ونظم مختلفة، وإجراءات. وترتيبات، لكننى إذ
رأيتها الآن فوق هذا الجزء من طريقى أدركت أن مصيرنا
بأكمله تحدد. ذكرت اسمى، وموطنى..

توقفت، تطلعت صوبى، غمرتني هلتها على القرب فكدت
أشب، وأدركتنى على البعد فكانت الباعث على خفق قلبى، تلك

هلة لزممتنى.. فكانت أول ما أفيق عليه عند صحوى، وآخر
ما أتعلق به قبل إغماض عيني، قلت هادئاً:

- أدعوك إلى حياتي.. هل تقبلين؟

فيما بعد.. أحطت علماً أن ذلك الألم الخفى أسفر مطلاً فى
ذلك اليوم، أخفت ذلك عني، لم يتبق إلا يومان وأغرب عنها،
بذلت جهداً غير يسير لقمع تلك الطرقات التى لم تعرفها من
قبل، وأشد ما يخيف مالم نعهده، أرادت أن تبدو هادئة، متألقة،
دائماً كما أحببت أن أراها، بعد أن عاتبتها عبر الهاتف، عبر
رسائلى، عبر المسافات، جاوبتنى:

- لم أشأ إزعاجك بينما سفرك قريب..

بعد لحظات قالت:

- لكن يبدو أن قلبك حدثك بشيء ما، إذ خاطبني فى
الطريق كغريبة!

- كنت أمزح..

تسلمت بريد ضحككتها الواهنة، المتعبة، الآيلة.

- هل تذكر؟

أو مات كأنها ترانى، كأنها على مقربة، مع أنها تهل على
عبر الرؤى والأطياف..

.. السابعة إلا دقيقة.

وقت ذروة، جمع يتوافد أفرادہ لحضور حفل، أقف أمام مدخل الفندق، أرقب الوجوه، الملامح دائما معبرة، العيون تبحث عن المنتظرين، اعتدت تأملها عند بوابات الفنادق التي أمضى فيها أوقاتا عابرة، كذا مخارج المطارات. محطات القطارات، الموانئ، صالات الاستقبال فى المستشفيات، دائما.. الملامح متأهبة، متوقعة لنبا، لفعل ما.

ضوء النهار ساطع مع أن الليل بدأ، نهار بدون شمس، عربات تتوقف، البنايات المقابلة مغلقة النوافذ، مامن شرفات.

عيناها فى مواجهتى..

احتجاج صامت، تنكسر الأشعة فى حدقتها فيبدو جوهرها العصى، لايمكن تحديد انتماءات الألوان، متداخلة، متغيرة، سنية الأوج، قالت إنها جاءت منذ عشر دقائق.

لم أجب. طال تصديقى، هلة مفاجأة، مباغثة كأنها انفجار ضوئى صامت يشعلنى شيئا فشيئا، كنت فى حاجة إلى استيعابها على مهل، بما تحويه من ترقب، وتحفز، واستعداد مسبق للملاقاة.

قالت إنها لاتحب الانتظار بمفردها.. خاصة أمام الفنادق.

تطلعت محاولا تثبيت الجزئيات، نفور شعيراتہا، انفراجة

شفيتها، تحفز غصنها، عدت أتطلع إلى اللحظات المنفلتة من
موقع متخيل أكون فيه نائيا، قصيا، غير قادر على تنسم
وجودها وإدراك أصولها، تدارى احتجاجها البادى، تسفر عن
ودها. تتسائل عن صمتى، تتوارد على الصور، التى بمفردها
تنتظر قرب النيل. حرجها باد، عندما بدا صاحبها بسط يديه
على امتدادهما، لمحت العتاب فى انتصاب قوامها، أدركنى
سرور غامض، رؤية عاشقين يلتقيان تشع بهجة وتبوح بوعد
ما. لكم حرصت على استيعاب خطوها المتدفق صويى،
فلسعيها ألق، ولقدومها القدرة على فك إسار، تضوى فى
مواجهتى مع أن ملامحها جادة، بها مس من عتاب وريما
غضب، المفروض أن نمضى إلى ملاقة صاحبة لنا لنسلمها
أوراقا خاصة يبحث عنه، لكننى أدركت من بزوغها، من
هينتها، أنها جاءت من أجلى، وأنها اجتهدت ليتم بهاؤها، وأنها
لم ترتد هذا الثوب إلا لأننى أبديت إعجابى بدرجة لونه، وأنها
قدمت لتمضى وقتنا أشمل..

- ٧ -

لكنها فى هذا العصر تأخرت، مواعدها الثانية، عقارب
الساعة أشارت إلى النصف بعدها، لا تتفن والدتها إلا كلمات
مصدودة من الإنجليزية، أشارت إلى قمها..

- الطعام..

أنفى بهز رأسى، أشير إلى الباب، أنكر اسمها: عندما

تجئ. تقوم متجهة إلى نافذة الغرفة الجانبية المطلة على الطريق المؤدى إلى مدخل المبنى، كدت أغفو بتأثير إرهاق كامن، أو قعدتى، أو هدوء المكان، فى الثالثة والربع أطلت مبتهجة..

.. إنها قادمة..

إنن.. مجرد لحظات وتهل.

انتظارها المصعد، ولوجها، ضغطها زر الطابق الرابع عشر، اجتيازها الباب، مثولها أمامى، غدا، فى مثل هذه اللحظات يبدأ شروعى العودة إلى موطنى الأصلى، أمضى إلى مكان، وتبقى هى فى آخر..

أصغى إلى تكة القفل.

لم تدخل، إنما انبثقت فتفتحت فى الحين، قوامها الفاره يميل وكأنها على وشك أن تبدأ العدو، أو تقدم على وثبة كبرى، فى مواجهة تفجرها بدأ هدوء تقبلى له، كنت مثقلا، لا أبدى من الانفعالات ما يوازى اضطرامها، وهذا حال يغلب على فى اللحظات الصعبة فيظن من يجهلنى جمودى، وانعدام مجاوبتى، مع أنى أترقرق، أبنو من الشروع فى البكاء، لكننى كظمت.

البيت هادئ، صامت، لكنه سيكون مختلفا عما كان قبلها، يفيض الفراغ. تتحرك هنا وهناك، تعد المائدة من جديد، ترتب

المقاعد. تشير بأصبعها متدركة أمرا، تبسط محتويات الحقيبة، أشياء صغيرة جميلة، تماثيل دقيقة من الجبس أو الرخام، مفارش منمنمة، لوحات من خشب محفور، قالت إنها تأخرت لهذا، بسبب نهابها إلى متجر التحف والعاديات.

- لكن اليوم أحد..

قالت إن المتاجر تفتح يوم الأحد الأخير من كل شهر. قالت إنها طلبت كتابة جملة على كوب من الخزف عبارة «إن شاء الله» بحروف لاتينية ونطق عريب، سألها مدير المتجر، هل هذا اسم شخص، تطلعت إليه صامتة، قالت إنها ترجونى مصاحبة هذا الكوب، أن يمثل أمامى، فى مكان أستطيع رؤيته كل يوم.

أرقبها، هلتها مستمرة، كأنها وصلت لتو، أو تبدو من جديد فى كل لحظة، سددت إليها غموضى وحيرتى..

- لماذا تبدو حزينا؟

أموه ابتسامة، قالت وكأنها مدركة لجملة بواعثى:

- لكننا سنلتقى.. الن تجيء فى أكتوبر؟

دنت منى، جرعت نسيمها حتى شبع صدرى، أشارت إلى قميصها ذى الحواف المزركشة..

- أول مرة.. من أجلك..

سمعت فجأة، دارت دورتين!

- ما رأيك؟

- رائع..

من ملامحها أدركت أنها تكابد مالا أعرفه وتؤثر أعدام
البوح.. مالت تجاهى بغتة، قبلتنى، تراجعت قليلا، تلالا الضوء
متكسرا فى عينيها، حاضا لى على السعى..

- ٨ -

.. لم ينفد أملى رغم اجتيازي أول حاجز، بخولى المنطقة
التي لا يتواجد بها إلا المسافرون، جنسيات شتى، حضور
خاص لأماكن العبور المؤقت، الضوء، حركة العابرين، جنبة
الوجوه، التأهب، حقائب تنتظر الميزان، عقارب ساعات تشير
إلى توقيتات أماكن مختلفة من العالم، اللوحة العريضة
السوداء توضح حركة الطائرات الراحلة، تلفت مرة أخرى، لم
أرها، المودعون كثر، لكن لا أثر، يبدو أن ثمة أمرا أهاقها،
وعندما قدمت بطاقتى وجواز سفرى ودفعت بحقيبتى، بعد
انتهاء إجراءأتى وتأهبى لعبور المر الضيق، القصير، عندما
دنوت من النقطة التى سأعبر عندها بوابات التفتيش إلى قاعة
الانتظار الأخيرة، المعزولة، أدركت هلتها بدون وقوع نظرى
عليها!

بين الواقفين، ملامحها. قسماتها، خصوصية حضورها،
حلت بكل الحضور، وفاضت بقسماتها على كافة الملامح فلم

أر عداها، ولم أَلح إلاها. كانت تهل على من كل صوب، تَتَينى
من كل فج، مع استحالة الوصل، فالإقلاع وشيك..

- ٩ -

خطوها، بسوقها، إقبالها، ولوجها القاعات، ظهورها فى
الفراغات، مثولها، نفيها سائر الموجودات عداها، ازدهار
خضرة الحدائق بها، وانتماء صفو اللحظات الجميلة إليها،
تمهلها فى المعرض، إطالتها النظر إلى أثر تبقى منذ آلاف
السنين، إصفاؤها إلى الشرح، انبهارها، ظهورها، هلتها
الأولى المفاجئة رغم شخصها أمامى.

متى:

متى جرى ذلك؟

صعب القطع، وعز التحديد، لا أدري متى وقعت عيناى
عليها أول مرة، متى هلت؟ متى انعكس حضورها المادى فى
حدقتى، لا أقدر على التعيين أو تحديد الزوغ، بدء سريانها فى
عمرى المحدود، مامن علامة فارقة يمكنها أن تحيد أو تؤثر،
مؤكد... يقينى، شروقها على قبل هذه اللحظات، عند دخولنا
صالة المتحف الرئيسية، لكننى أثق من معرفتى لها قبل ذلك.

متى لاحت أول مرة إذن؟

أعجز عن التحديد، عن القطع، هى قديمة بلا شك.

كانت تخطو فارهة، مطلة على مايحيطنا. لايرقى إلى حضورها حضور. ولا يدانيها وجوه، يداها فى جيبي معطفها الرمادى مرتفع الياقة، تميل أمام تمثال، أو تتوقف عند لوحة، تتوحد، تشرذ عن الجمع، حتى عند اندماجها بالآخرين يستمر بسوقها وتفردها.

هذا المساء باق عندى، لاتبهرت تفاصيله، مع أن الاف الامسيات التى عبرتها بحضورى الكينونى اندثرت، لم يبق منها تفصيل، كأنها لم تكن، تطلعت حولى قلقا، كنت أعى مايطرأ على ملامحى، من انفراج، وضيق.

فى تلك الليلة نظرت إلى الموائد وماتصل، إلى الأطباق والاكواب والزجاجات وما تحوى، إلى الخطين الأحمر والأزرق، إلى زملاء السفر، بدأ بعضهم فى سكب النبيذ، أو التهام السلطة. نظرت إلى المقعد المجاور الذى حرصت على ألا يقر به أحد، أسندت اليه حقيبتى الصغيرة، لم يدن منه آخر.

دقائق ثقيلة تمضى، ومر على تحملها، أضيق بها إذ استعيدها رغم المسافة المكانية والزمنية، تبدأ الهواجس والظنون، لم تبدأ خطوط الوصل بعد، لم تحل لحظات التماس، إنما مجرد محاولة مبذولة من جانبي، قد تتصل أو تنقطع فى أى لحظة، تسألت: فى أى مكان هى؟ فى الطريق؟ أى ناصية إذن؟ أى شارع؟ بمفردها؟ أو تلزم صحبة، إذن.. من ؟ صاحبة أو صاحب؟

أحنيت رأسي، في هذه اللحظة بالذات سرى هبوبها إلى ،
مسنى قبل أن أراها، اجتازت الباب والمساحات الفاصلة
مباشرة إلى المقعد المجاور تماما، قمت فأفسحت فمرت، لم
تلتفت ناحيتي، مجرد إيماء سريعة، لا خصوصية لها، ولا
تفرد، غير أن سكونا لطيفا محببا شملني.

عندما توقف المصعد، أضاء الرقم السابع، انفرج شطري
الباب، أهلت، منبلجة الملامح، رجة العينين، قلت:

- لم أرك منذ الأمس..

لاحت وكائنها تشكو، بصوتها مس من دلال..

- أمور كثيرة.. كان يجب إنجازها..

- هل ستذهبن إلى المقر غدا..

تومي، تلك الإيماء السريعة، الدالة، المختصرة، لكم
استعدتها فيما بعد، لكم أسرع أو أبطأت نبضى.

- أراك هناك..

- الثانية عشرة..

قلت مرددا:

- الثانية عشرة..

أضاء الرقم السابع عشر، التفتت محببة، أنتبه إلى وقوف

رجل عجوز، أشيب الشعر. لم أدر جنسيته بالضبط. إلا أنه كان يبتسم برقة، قال:

— لطيفة جداً..

دهشت، كيف لم أنتبه إلى وجوده بجوارى رغم ضيق الحيز؟ أو أن هلتها المفاجئة. نتاج المصادفة. أقصت ماعداها عن دائرة وعيى من قبل ومن بعد؟

تلك النهارات، الليالى، الأويقات المجمعة، هذه النواصى، المداخل، الممرات المؤدية، الفاصلة، الغصون العارية، خطوها فوق الحشائش المبتلة، فوق البلاطات الحجرية، الحجرات التى اتسعت وفاضت، هلاتها المياغطة التى لم أعد لها العدة، هلاتها البطيئة القادمة، زمن سعيى. زمن اقترانى، اقترابى، اجتيازها، الإحاطة بى، نثار مكنوناتى.

هلاتها فى الإصباح، العصارى، تحدد أزمنا وتقصى أوقاتا، لا أقدر على إحصائها، خاصة زمن انقطاع رجائى، توحدى، انفرادى، تلوح فجأة، من جهة لم أتوقعها، وأحيانا من جهتين فى وقت واحد، ومعظم الأوقات من سائر الجهات، يطول إصفائى رنوى إلى المتوهم، إلى ظلال حضورها فيقوى على حتى أوشك على ملامستها، أحيانا أنفر واقفا، ساعيا صوب اللامكان، مابين يقطتى واكتمال سباتى أسمع حفيفها، حضورها قريى، أهملنا منى أنى قادر على تناولها، لمسها، إدراكى الحسى لها، أفيق على هباء فيقوى تهديجى.

أسعى إلى صورها، إلى اللحظات المنتزعة من العدم،
أسترجع اللحظات المنقضية لأستوثق فلا أقبض إلا الهباء، أما
هذا العصر فباق، هفا حضورها على، أيقنت إنها نانتنى، أنها
صاحت باسمى من موضع سحيق، أهلت فى أفق وعيى خلال
سكونى وحركتى، انتقالى من عملى إلى بيتى، إلى ركنى فى
المقهى، عند عبورى مدخلا، عند وصولى، عند لقائى بأقران
الفترة، عند تقليبى صفحات، عند مروق الموجودات عبر نوافذ
الركبات، خلال طى المراحل، عند بدء خطوى فوق الطريق
المترب، المرتفع، المغمور برائحة التين والنخيل، والمياه الجارية،
المؤدى إلى بيوت قرىتى، عند رسوى فى المسجد العتيق الذى
أوى إليه قبسا من وقتى، ملتصبا التأمل والانفراد، عند سعى
لزيارة مراقد أحباب رحلوا، عند جنوحى إلى حافة الضيق،
بلوغى ذروة النصب والعناء، أهفو، أطلع، أرقب هلة ربما تبرز
فجأة، مع يقينى التام بانقطاع المصدر..

مايو ١٩٩٠

أماكنها

~~~~~

ليل الهــــــــــــــــــــــــوى يقظان  
والحب ترب الســــــــــــــــــــــــهــــــــــــــــــــــــر  
والصــــــــــــــــــــــــبــــــــــــــــــــــــر لى خسوان  
والنوم عن عــــــــــــــــــــــــينى بئادى  
يــــــــــــــــــــــــاز هــــــــــــــــــــــــرة الأنــــــــــــــــــــــــس  
لــــــــــــــــــــــــو لــــــــــــــــــــــــك لــــــــــــــــــــــــسم أــــــــــــــــــــــــمس  
فى الدهر والأهل غــــــــــــــــــــــــســــــــــــــــــــــــر يــــــــــــــــــــــــب  
نوبة العشاق  
صنعة ترشيع

## مستهل..

.. يشق على ذلك الآن.

توهنتى المحاولة، تنال منى، وعمر على استعادة اللحظات كلها فى تتابعها، فى تواليها، إنما أرى كلا منها بمعزل، البعض واضح جلى، أما الأغلب الأعم فغائم، كأنه لم يكن، لم أعبره، لم يعبرنى، كأنه تلك الثقوب السوداء فى جدار الكون حيث ينتفى الزمان والمكان، وإذا توشك الصفحة أن تمحى، وما كان منى يتبدد ويتذرى، أقدم على التدوين، محاولا استعادة مايوجد الآن، ولكننى لست بالغه، مايمكن لسه والتحقق منه بالعين، حتى إذا تمكنت من أماكنها أسترجع بعضا من ملامح الوقت، فلا يمكن استعادة موضع إلا من خلال لحظة احتوته

واحتواها..

هكذا أقدم، لعل وعسى!

### وتوقع التماس..

عندى تتداخل الواجهات، تتراص النوافذ المستطيلة التي  
تؤطر زوايا شتى لحظات التطلع منها، ولا بد أن بعض من أجهل  
رأى أثناء سعيي إلى هذا الموعد.

نواص مؤدية، لافتات معلقة، معرض للزهور، ياقوتى  
المدخل، مداخل منظوية على أسرار شتى، أفاريز خشبية، زهور  
من حديد، سقف قائم، بوابة فسيحة، فناء مبلط بالحجر القديم،  
تطل عليه ثلاثة مبان، قديمة، تمت إلى القرن التاسع عشر،  
وربما الثامن عشر، فالعناية مبذولة متصلة حتى لتبدو بعض  
البيوت المشيدة منذ ثلاثة قرون كأنها قامت منذ خمسين سنة  
أو أقل.

سلام خشبية، حلزونية التكوين.

كم طابقا ارتقيت؟

لا أدري.

كم درجة صعدت؟

لا يمكن التحديد.

ما أعيه أن مسكن صاحبي في النهاية، متصل بالسطح،  
توقفت مرتين خلال طلوعي، الغرفة فسيحة، غالب عليها الظل،  
حشايا موزعة بدلا من المقاعد.

كم عدد الأصدقاء الذين كانوا في انتظاري؟

لا أعرف.

حتى ملامح صاحبي تضطرب، تختلط، متوسط القامة،  
ريعة، جاد دائما، عرفته خريجا للأزهر، مشغولا بأمور البلاغة،  
جاء إلى تلك الديار في بعثة لعنة سنوات، يرجع بعدها إلى  
بلده. معروف بتعصبه للماركسية، واستشهاده المستمر  
بنصوص من مصادرها، وقت تدويني هذا لا أعرف مستقره،  
أين هو؟ منذ سنوات نمت إلى أنه يعمل بالتدريس، وأنه فصل  
من الحزب الذي انتمى إليه، بعد خلافات عقائدية دبت، يكتب  
مقالا هنا أو هناك، لم تدم صلتى به، إذ يطيح بى الحنين  
أستدعيه ليمثل أمامي، في أفق وعيي، ألم يكن السبب المؤدى  
إليها، لو أنه لم يدعنى لما لقيتها، لو أننى تخلفت لسبب ما.. لما  
عرفتها، لظل وجودها مجهولا عندي، وذلك عين الجهل بذاتى،  
لأن جوانب شتى عندي لم أقف عليها إلا من خلال تطلعها إلى،  
وإصغائها إلى كلمى، وحنوها على، وسعيها مخلصا إلى  
الاتحاد بى.

أحيانا.. رغم انقضاء المدة وتمام الأمر، أخشى تخلفى عن  
الموعد الذى تم وانقضى منذ سنوات عشر، يخفق قلبي

اضطرابا كان الخشية من المستقبل الاتى، وليست على الماضى  
الأقل، إنما تفصيل ذلك يطول، فلا أقصر حتى لا أheids عن  
القصد.

انتظرنى صاحبى فى مكان لا أعيه الآن. رصيف المحطة؟  
ناصية؟ أمام مقهى صغير كان مقصدا لعدد من المشاهير.  
لست متيقنا، اختلطت على الموجودات مع أنها مؤدية إليها.  
ظهورها بدد ماعدها، بزوغها الهادئ، المفاجئ فى فراغ الغرفة  
الفسيح، لا أظن طرقا تردد، أو جرسا نبه، إنما حطت بغتة.  
لاحت، شع حضورها الألق، العنبرى النسيم فلم يصلنى إلا  
أطيافها. ابتسامتها الهادئة، الحاضة على الود، جبينها الأزهر،  
توقفها عند حافة البساط البربرى الزخرفى، المتسوج فى ريف  
الغرب ليوضع هنا وتطؤه يوما. انحناؤها قليلا حتى تخلع  
حذاءها، ظهور مقدمة جوربها الأبيض مؤطرا ومحددا أصابع  
قدميها، تلك التى لثمتها تباعا فيما بعد ومرغت عندهما هامتى  
إذ أوشك على بلوغ ذروتى، ويتضور أجيجى.

تبدل المكان بظهورها فولج أفقى. استندت بمقدمة نقنها إلى  
ركبتها، بينما ثنت الأخرى كأنها اتخذت مرقبا خفيا تتطلع إلينا  
منه، قميصها من صوف ناعم، درجة من اللون ياقوتية، لا  
أتردد فى قبولها، والاستكانة إليها، سروالها من قطيفة سوداء،  
انثوية القوام، ما بين امتلاء ونحافة، استقامة أنف، وثرأ شفيتين  
مع انبساطهما ورقتهما وحيويتهما إن فى تضامهما، أو

انفراجهما الأسر عند الإصغاء، وجهها المستدير، شبه المستطيل. عيناها السوداوان، استدارتهما الهندية، وانحرافهما الصينى، أما العلاقات الخفية بين ملامحها فتسفر عن جمال خفى يستمر متجها إلى كمال مرتقب مع مضى الوقت، لا أحيد عنها بعينى إلا وأرى تبديلا طرا.

أعرف أن الأمور تتحدد عند البدايات. لهذا قوى يقينى بسعى إليها، ومجيئها صوبى، فى فراغ هذا المكان العلوى الذى لا أعرف من يشغله الآن، تماسست نظراتنا لثوان. لمديدة قصيرة يستعصى رصدها بقياس الميقات المعروف. مع اتصال الحوار بين الجمع، تكررت مرات التلاقى بين نظراتنا. بين قسماطنا، بين تراثينا، بين رحلتى التى انتهت عندها، وظهورها المكتمل. حتى إذا تبادلنا الاستفسار والجواب ونحن فى إطار هذا الجمع أيقنت تحقق الخصوصية.

فى هذه الغرفة أشار صاحبى إليها بعد أن قدمنى ناطقا اسمها..

.. سندس..

لحظة نطقه لاح تطابقه مع حضورها، فلم يكن ممكنا أن تسمى بغيره. فى تلك الغرفة طقت الشرارة. وأز أوارى. أما ما يستعصى على الرصد فأشمل وأعم وأبقى من كل مدرك بالحواس..

## الانفراد..

.. درجة عتيقة من سلم حجرى مؤد إلى النهر، عند الطرف الشمالى للجزيرة التى تتوسطه، تتجاوز المبانى القديمة التى حوفظ على عتاقتها، هنا يقيم أثرى الأغنياء، ومشاهير الكتاب والرسامين وعازفى الموسيقى، عكس الأمر فى مدينتى، حيث هجر ميسورو الأحوال دروب القاهرة القديمة، ونأوا عنها!

هنا الطرقات ضيقة، والنواصى تؤدى إلى أزمنة متجاوزة بقدر ماتوصل إلى موضع، شارع كان أو ساحة. أبواب من خشب غامق. صلد، بدون اغلاق، فى اللون والتركيب جهامة. لا تفتح إلا لمن يعرف الرموز والأرقام، أما النوافذ فمغلقة، ستائر رهيقة تحجب الأكابر والأفراح والظل والضجر والتوق.

مطاعم صغيرة فى الأزقة الضيقة، خافتة الإضاءة، أنيقة، معروفة أنها أعلى مطاعم المدينة، لا يطرقها إلا العارفون، الذواق، ليست مقصدا للسياح الأجانب، خاصة أثرياء النفط الذين أعدوا لهم شارعاً عريضاً، فسيحاً فى وسط المدينة، فيه متاجر كبيرة، واجهاتها ملونة، وبضائعها غالية. وأماكن أخرى فيها مبازل كثيرة..

هذا ما أفضت به إلى فيما بعد، وهى تنهى مغاليتى المدينة وترشدنى إلى مواطن جمالها، وتقودنى إلى نفائس كنوزها،

الكامن منها والمستتر الذى يصعب الوصول إليه أو معرفته  
خلال فترات زياراتى القصيرة.

أزقة الجزيرة، شوارعها الضيقة، نواصيها، انحناءات  
شوارعها، تلاقى مبانيها، فراغات ما بين الجدران، حوارات  
الواجهات الصامتة، لون الضوء من خلالها، الأيام الرمادية،  
والنهارات الساطعة. النهايات المفاجئة غير المتوقعة للطرق  
الموصلة كلها إلى النهر من مختلف الجهات، الجزيرة صغيرة،  
مساحتها ضيقة لذلك تتلاصق البيوت، إنه الجزء الأثير.  
المفضل عندها فى المدينة. تقصدها إذا ألم بها ضيق. إذا  
رغبت فى الانفراد، إذا هامت فرحاً، تجلس بالمقامى  
الصغيرة. لكنها فى معظم الأحيان تمضى منفردة إلى ضفة  
النهر. خاصة عند تفكيرها أو انشغالها بأمر صعب. أو..

- إذا أردت مقابلة عزيز على..

هكذا صرحت بصوت خافت، متأمل، كأنها تخاطب شخصاً  
لا يرى، ولم يكن سوى ماثلاً أمامها، هنا.. طق سرورى، وزج  
بى انفعالى!

هذا السلم الحجرى المؤدى إلى النهر مباشرة يرجع تاريخه  
إلى القرن الثالث عشر، هذان العمودان المرمران كانا قائمين  
فى قصر قديم تهدم فى السنوات التالية على الثورة العظمى  
التي اجتاحت البلاد منذ قرنين، أحد رؤساء البلدية نقلهما إلى  
مدخل الدرج فى نهاية القرن التاسع عشر.

السلم لم يجدد، لم يرمم، تاكلت حوافه، يقولون فى المدينة إنه مشهور بالتنهدات، ومن فقد عزيزا عليه أن يجىء إلى هنا. يذكره ويتنهد، عندئذ لابد أن يراه فى المنام.

.. هذا مكتوب فى الدليل السياحى الصادر بعدة لغات..

.. ومع ذلك لم أر أى إنسان عدانا..

قالت إن بعض السكان القدامى أخبروها أنه منذ انتهله ثورة الشباب نهاية الستينات كف القوم عن التردد.

.. إلى..

.. لابد أن من ترغبين رؤيتهم فى المنام كثيرون..

مدت بصرها إلى بعيد، توشحت بغمام رهيف أومأت..

.. نعم..

إذ تمتد جلستنا ويطول صمتها، تصبح مدججة بالعزلة. تتطلع إلى مياه النهر الهادئ، المروض. أتابع همس الموجات الهادئ لعلى الملح ماتقراه. صار الموضع مفضلا بعد اتصال اسبابنا، إذ تطوف هنا وهناك ننتهى إليه أو نبدأ منه، أول انفرادنا كان هناك.

عصر..

وهن النهار وبدأ خفوت الضوء، التقينا عند بداية القنطرة الحجرية، لم يكن وصولى إلى المكان الذى اختارته صعبا على المتحف الشهير على مقربة.

بكرت. خوفاً وتوقاً، الخوف فمن احتمال فقدان الطريق، أما التوق فإليها، هذا الخفق الذى يسبق الخطأ، وذلك الهروع الداخلى إليها، لكم أسرعت، وغالبت الشوق، وكابدت الوقت، كان ذلك قبل ديبب التناقل، وتقاعس الهمة.

رحت وجئت فوق الجسر، انحنيت متأملاً مياه النهر، الطحالب الخضراء الزلقة الملتصقة بالقوائم، حاولت تخيل اللحظات الأولى، استعدت صوتها عبر الهاتف، لم تبد أعداء، لم تتردد، حددت الموعد، وبدأت تشرح لى كيفية وصولى إلى المحطة المؤدية، لم تنس أننى غريب، جاهل بلغة أهل البلاد.

لم أكن أدر الجهة التى ستجىء منها، لكننى خمنت أنها ستصل بالقطار، تطلعت إلى الطريق، إلى الإفرين، إلى الرصيف، إلى واجهات المباني، إلى اللحظات التى أمضيها عند صاحبي، ثم خروجنا معاً والليل غميق، وإبدانى خشية ابتسمت لها، إذ اعتادت العودة متأخرة، إلى المتاجر العتيقة المتراسة، المتجاورة على الجانب الآخر. لكن.. صوتها جاعنى مبالغاً من الناحية الأخرى، كانت فى الجزيرة، لماذا؟ كيف؟

فى البداية كنت أسأل حذراً، راغباً فى الإحاطة بكل ما يمت إليها بصلة، ولم أدر اننى أجد أقوى جسورى صوبها.

حتى بدء تلاقى مسارى بمسارها، خبرت وعرفت لحظات لقاء أولى شتى، أذكر من اللواتى أضنان حقباً من عمرى هلاتهن، يرتبط الظهور بالحضور والتكوين وقوة الرغبة

والسعى، هذا يطول شرحه، لكننى أقول موجزا إننى عرفت ظهورا كالانبثاق، كسطوع نجم جبار فى المجرة، ظهور يعشى فيجب ماعداه، ربما لا يتبقى من علاقة إلا تلك اللحظات، جرى ذلك عندى، إذ غلبت هلات محبوبة لى ماعداها. وألحت على فأقدمت على تدوينها.

عرفت ظهورا كميلاد قطرات الندى، ترى بعد اكتمالها، صعب رصدها أثناء التكوين، وربما توحى قطيرة واحدة، وحيدة، يكون أتم، ثمة آخر يبدأ هادئا ثم يتعالى صخبه، يتدفق، يغمر، إلى هذا ينتمى طلوعها ويتشجج، بل يستمر بعد انصرافها، فكان حضورها دائم مستمر حتى بعد انقضائها، بعد انقطاعها تضوى وتتجسد أناتها فى ذروة إحساسى بابتعادها.

هكذا.. تعتقت فى دمى مع مضى السنوات، ومكث منها عندى مالم أعاينه لحظات احتوائها لى واحتوائى لها، تمشى مثل الأخريات، تسعى خافتة فى الأسواق. لا تستوقف نظرا، ولا تلفت راصدا. لكن.. بعد وصولها، رسوها، يبدأ وفودها الخفى على مهل، شيئا فشيئا، يتم بزوغها، أما تورد وجنتيها فيفتح على مهل، ولا حد للاكتمال، لم أكتشف حماس خطوها عندما تقدمتنى عبر الشوارع الضيقة إلا عندما استعدت اللحظات الفانية. كانت أسرع مما اعتدته منها فيما بعد، تقابل الأرض بكعبى حذائها فيطق الصوت المنتظم.

تجاوزت الرصيف المبلط بالحجارة إلى بداية الدرج، أوراق  
شجر متساقطة، أغصان رفيعة، نرات غامضة مجهولة  
المصدر، عندما استقرت جالسة لم تنفض موضعها، إنما مالت  
قليلا إلى الأمام، بدا صمتها عميقا، مستمرا إلى هذا الوضع  
ينتمي حنيني، أما العناصر كلها فإليها تنتسب، انحناء النهر،  
موجاته، الضفة الأخرى القريبة، الجزيرة التي أدرنا ظهرنا  
لبيوتها، لنوافذها، لداخلها المثقلة بالأسرار، الطوابق العلوية،  
ملامحها تتوزع هنا وهناك، تتعشق بالنواصي، بهبات النسائم  
عند المفارق، استرجعها رغم انقضاء المدة فيهن فؤادي. ويشف  
وجودي، أصير أدق من طيف عابر، تنفر دقات قلبي فأملح، إذ  
أصغى إلى نغمة تلمس منى دفائني، تغد على اللحظة بقوة،  
حتى لأتوهم استعادتها، لكنها تفلت، تذوي، لا أقدر على تأملها  
حتى، لكن مع مروقها الشهابي تخلف زلزلة عندي وصلصلة!

في ذلك الفراغ، الحيز، عند نقطة منه تماس يدانا، تكوكت  
أصابعنا، حتى لم أعد قادرا على تحريك أحدها لو أردت،  
لتمازجها. أين سبابتي من بنصرها، وأين إبهامها من أوسطي؟  
تغامست نظراتنا، وعندما ملت إليها لاقتني ولم تنفر، هل يصد  
الكوكب جرما أو نيزكا؟ تائها، ضالا، شاردة في الفراغات  
العلی، انجذب إليه. ليحترق قبل ارتطامه به؟

عند نقطة أخرى من الفراغ تلاقت شفاهنا، عندما تسارعت  
أنفاسنا، ونأى الوقت عنا، وكنت أمعن، تراجعت، بدت

متوجهة، متقدمة، أعدت الكرة لكنها صدتني بلطف حازم.  
نطقت:

- من أنت؟

ثم تساءلت:

- لماذا تسعى إلي؟

ثم رددت:

- ولماذا أسعى اليك؟؟

ثم أتبعته قولها بهزة من رأسها:

- لماذا؟ مع اني لا أعرفك..

مضيت ببصري إلى مياه النهر، إلى الضوء الهادئ  
الساجي، أطرقت موغلا البصر في الدرج الحجري الذي  
تمنيت الإيواء إليه مرارا فيما تلى ذلك عندما جنّت إلى المدينة،  
لكنني لم أجرؤ على الخطو إليه أو فوقه منفردا، نعم.. أستعيده  
مرارا، أستكين لهبويه على في أقاص شتى، ولكن إذ يتحقق  
قريبى منه أنأى، فلا أقدر على مواجهة ما أنقضى وكان لأنه  
حى، صاخب عندى وليس فى المتناول.

رفعت بصرى، واجهتها، تطلعت إليها متفرسا، محذقا،  
مجتهدا، قالت حائرة:

- ماذا؟

حاولت الإلمام بها، بعلامحها، بمصادر سناها وألقها،  
بمنابع حنائها البادى، وهشاشتها، وهمس حضورها.

ماذا؟

عندئذ أشرعت أصبعى. صوته تجاهها فى تحديد وتعيين  
لا ليس فيه، هنا تبددت حيرتها، ولاح مزيج من دهشة وتساؤل،  
سمعت رنة صوتها الخاصة المقترنة بلهجة موطنها الشامى:

.. أنا؟

### الطريق المؤدى..

.. كنت مقيما فى الجانب الشرقى من المدينة، وهى فى  
الغرمى، بعد منتصف الليل، وعبر أسلاك ودوائر معدنية  
وأجهزة لا قبل لى بفك طلاسما أصغيت إلى صوتها يصف  
الطريق. كتبت اسم المحطة بحروف عربية، استعدتها مرارا  
لجزالة نطقها وفرائته، ويعد تدوينى كافة العلامات، بعد  
إصغائى إلى جملتها:

.. أنا فى انتظارك..

أقلعت مرتين، الأولى من مكانى، والثانية من وقتى، مستوثقا  
أن لحظات تأهبى وتوجهى ستضفى على مسيرة عمرى أمرا  
لا عهد لى به، وهكذا صارت تلك الليلة من ملاجئى الخفية،

أقصدها إذ تفيض بى الكدورات، واستبطى استعادتها عندما  
تتكاثر الهوامج فيهدأ قلبي، ويخف همى.

تطلعى إلى القصبان الممتدة تحت الأرض، الألوان المختلفة،  
الدوائر الصغيرة المرسومة فوق اللوحة الإرشادية، هذه  
الخريطة عرفت بها بأحجام شتى، منها الكبير المتصل بمفاتيح  
ملونة عند مداخل المحطات، تضغط اسم المحطة فيضئ الذرب  
المؤدى، ومنها المستطيل الملصق إلى الجدران الداخلية  
للعربات، ومنها الصغير كصفحة كتاب، يوضع فى الحافظة،  
ومن هذا احتفظت بواحدة. لكم تطلعت إليها فى لحظات شتى،  
أنظر خط المترو الذى كان يصلنى بها، لونه على الورق بنى  
غامق، أमرق بالبداية، مستعيدا المدخل القديم، السلم الذى  
يرجع إلى بداية القرن، الأشجار المطلة على المدخل والتى تغيب  
شيئا فشيئا.

ثم انتقل ببصرى على الورق، من محطة إلى أخرى، ناطقا  
اسم كل منها على مهل، متعنيا أن أقطع وقتا مماثلا لما كنت  
أستغرقه فى الواقع، حتى أنتهى إلى الموضع الذى حددته لى  
اول ليلة، ثم صار مقصدى فى المرات التالية، عرفت حتى أننى  
اعتدت ركوب آخر عربات القطار لمواجهتها المخرج مما يوفر  
على قطع بضعة أمتار مشيا، أنحنى متفرسا، مدققا،  
مستبصرا الخريطة، متخيلا المداخل والمخارج، المراحل التى  
يخرج فيها القطار من النفق، عبوره الجسم المعلق فوق النهر،

المعالم الشهيرة، البرج، الضريح، المتحف. المقاهى القديمة،  
عازفى الآلات الموسيقية، باعة الزهور، تطالعنى منبثة فى كل  
صوب فكان هذا لم يوجد إلا للتمهيد إليها. والسعى باتجاهها،  
فلا يمكن بلوغها بغتة أو مصادفة، لابد من قطع مسافة  
وارتجال، وقد طال سفرى إليها، سنوات عمرى لم تكن إلا  
مراحل نحوها، شتى أسفارى، قطعى المسافات القصية، بلوغى  
المراسى، إقلاعى من الموانئ، ركوبى طائرات تجتاز الفراغات  
العلاء، سفن صيد تخرج إلى غيبة تطول أمدا غير قصير، فى  
غرف مغلقة، فى زوايا، فى تكايا هجرها الدراويش منذ زمن،  
أضرحة، مزارات، أقطار أجهل لغات سكانها، كان سعى إليها  
شاقا عسرا لكنها.. اليسر كله!

نزلت فوق الرصيف طالويا قصدى، متكئما أمرى، الجدران  
شبه مقوسة، النصف الأسفل مغطى ببلاطات خزفية زرقاء،  
العلوى مكسو ببلاطات بيضاء، خريطة توضح المنطقة المحيطة  
التي سأخرج إليها، لم أتوقف أمامها، لم أستعن بها، إنما كنت  
أتبع صوتها، نونت ما أملت على، صعدت الدرج القصير،  
خرجت إلى الفراغ الليلي. المبنى المواجه من طابقين، تحته  
مخبز، يليه مقهى أغلق أبوابه، متجر للملابس الأطفال، مكتبة  
قديمة متخصصة فى الأديان المختلفة، يقصدها باحثون من  
شتى أنحاء العالم، المقهى المطل على ناحية الشارع المخصص  
للمشاة فقط، الميدان الصغير تتوسطه ساعة ذات أربع واجهات  
مستديرة، إلى يمين القادم من المحطة يبدأ الطريق، ما من

ملاحم محددة، منازل متجاورة، سور مرتفع فى الجانب الآخر، رقم تسعة، تسعة، التاسع مكرر، مدخل أول يؤدي إلى فناء صغير، يتوسطه حوض دائرى من رخام يضم زهورا، فى المواجهة باب خشبى ذو مصراعين، مصمت، قرب منتصف الجدار لوحة مضيئة، مفاتيح مستديرة، بحذر أضغط الأرقام والحروف، أقرأها من الورقة، أسرع بعد سماع الأزيز الخافت إلى دفع الباب، أجتاز العتبة، رائحة الأماكن الظليلة، مصعد لا يتسع إلا لشخصين، أضغط الزر الثالث، إلى اليمين، بابها، آخر مدخل أجتازه صوبها، رنة الجرس يمكننى سماعها، وكأنها تنتظر، قبل أن أمد يدي مرة ثانية أنشق مصرعا الباب، كانت تقف خلفه، وجهها يتطلع إلى مرحبا، هادئا مبتسما..



## الماوى..

.. البدايات لا تنسى. كذا النهايات، الحقائق لا تتبدل إلا عند استعادتها، أكابد تجسيد اللحظة بالخيلة، أحرق فيما لا يمكن لمسه، أدقق فيما يستعصى على غيرى رؤيته، أرى التكوين أحيانا فى مجمله، ومرات أخرى فى تفصيله. وقد أطلع على مالم الحظه فى أنيته، وربما يغيب عنى ماظننت أنه لن يبيد أبدا.

هذا الحيز ضمنا، بمجرد إغلاق المزلج صرنا بمفردين، بمنأى عن كل بصر، ويعيدا عن كل سعى، عدنا بالخليقة إلى بدايتها.

الموجودات كافة فى ضمير الغيب، المؤكد، الامر الوحيد اليقينى.. تدانينا، تأهينا، تماهينا، حركتنا فى هذا الحيز.

مدخل مفض إلى صالة صغيرة، ثم غرفة داخلية، يليها

حمام مستطيل، أتمهل، لا.. بل أعود إلى انتظارى القصير فى الخارج، عندما سمعت نكة القفل، ومفارقة السلسلة المعدنية لمربطها، وتقلب مفتاح ثالث، أدركت إلى أى حد تحتاط، تجسدت عندى وحدتها، قاسية، وعرة، عندما فتحت الشطر المتحرك من الباب كان جسدها يختفى خلفه، بينما أطلت برأسها، كان حضورها متضمنا الترحيب والتدثر والحذر والتواطؤ والتفاهم، وتوق إلى ماسيكون! عندما عبرت العتبة الفاصلة هب على حضور خاص، مازلت أعيه لكننى لا أقدر على تحديده أو تعيينه أو نسبته إلى أى من الممكنات، ثمة ما يستعصى على الذاكرة الاحتفاظ به، مثل الأصوات، الروائح، تلون المحيطات العابرة بالأحوال، ويرغم صعوبة استدعائها أو تمثيلها فإن قبسا منها إذ يهفو فى أويقات لا أتأهب خلالها للتلقى أو هبوب الحنين، عندئذ ينبعث المكان والزمان، ولكنه سرعان ما يفنى.

يشق على استعادة خصوصية المسكن، أعى منه وطأة الظلال، ومبثول الانفراد، الوحدة، هذا ما انطبع عندى فى المحيطات الأولى. وهذا ما ظل مرجعا لى أستند اليه وأتكئ عندما أستعيد الوقت.

جلستها عند حافة الفراش، تسند رقبتها إلى راحتي يديها، تميل إلى أمام، نظرها مسدد فى اتجاه خفى لا يبين، تطلعها عبر النافذة المستطيلة، تصل ما بين السقف والأرض، يحد

انفتاحها على الفراغ سور من حديد مفرغ، قصير، ستارة خفيفة لكنها تحجب، مع أنها أكدت لى، هنا لا يتلصص إنسان بالنظر على آخر، تلك اللحظات الأولى. استقرارى فوق الحشية الوثيرة التى فرشت فوق الأرض مباشرة، هكذا اتجهت صوبها، لم أقعد فوق الأريكة الصغيرة، أنثوية المظهر.

مذياع بنى اللون، قديم الطراز فوق منضدة مستديرة، يذكرنى بالحرب العالمية الأولى، أو الثانية، حرب فيها المان وإنجليز وهنود واستراليون، لم أعشها لم تكن وفانتى إلى العالم قد تمت ربما الآن، طرازه يمت إلى حقبة ما بين الحربين، ربما لأنه يشبه مذياعا امتلكه سكان الطابق الأرضي، كنا ننزل عندهم لتختفى من الغارات الجوية، من الشظايا الحائمة، الشاردة، كنا نلتف حوله، الضوء الواهم المنبعث من لوحة الموجات والمفاتيح يضئ الملامح المترقبة، المتحفزة لسماع مايجرى فى فلسطين، مذياع خشبي الصندوق، بنى اللون، مستطيل القاعدة، محدب أعلاه، أسماء المحطات وأرقام الموجات مكتوبة بالانجليزية والعربية، قالت إنها صحبتته معها من الشام، خص والدها زمنا، وإنها لتراه جالسا إلى جواره مصغيا إلى الأخبار أو موسيقى منبعثة من مكان ما، قالت إنه عزيز عليها جدا، فى الركن منضدة، لوح عريض من الخشب بلونه الطبيعي، يستند إلى أربع ركائز، بدون أدراج، فوقه كتب، وعلب داخلها بطاقات، كوب خزفى تبرز منه أقلام عديدة، مختلف ألوانها، وأوراق شتى وحامل خطابات قرب الحافة.

كنت متاثرا بدرجة ماء أخشى أن أبدو مبتذلا، أن يسفر  
منى مايعنى سوء الأدب، وهذا من قبيل الفحال فى مواجهة  
المحبوب. لذا كان بصرى موزعا ما بين الرغبة فى النظر إليها،  
والإغضاء خجلا منها، أما اتقادى وتلججى عند النهر فلا أثر  
له هنا، بل صوت هادئ، ألتست على مقربة، ألم أدن؟ أليست  
القطوف قريبة.. فلم العجلة التى ربما أدت إلى الخطأ؟

غلب على حنين ما ربما أثاره دفء المكان، وما يعنيه  
اجتماعنا على انفراد، وانشغالى بكيفية استعادتى للحظات  
عندما تفوتنى وتصبح مستحيلة التناول، عندى أيضا تهيب ما،  
يلازمنى إذ أدنو من مشارف امرأة سيتوحد عالمها بعالمى، ماذا  
يجب أن أقوم به؟ كيف أجتاز المسافة الفاصلة؟ رغم قصرها  
لكنها أصعب المراحل.

سألت عن موقع المنطقة من المدينة؟ عن المدة المنقضية على  
سكنها هنا؟ عن المسافة التى تقطعها يوميا إلى الجامعة، إلى  
عملها بعد الظهيرة. عن إيجار الشقة. نسبته إلى دخلها. أين  
تنام؟ بأى غطاء تتدثر؟ متى تفرط؟ على أى ضوء تقرأ؟ متى  
تعمل فى أطروحتها، كيف توزع الوقت بين تصحيح كراسات  
التلاميذ ومذاكرتها؟ كم ساعة تنام إذن؟

أجابتنى بدقة، بسرور بين، فيما بعد قالت إنها تأثرت جدا  
لاهتمامى بها، منذ سنوات طوال، منذ مجيئها إلى هذه القرية  
لم يستفسر آخر عن شئونها، ولم يبد مخلوق اهتماما كما

فعلت. عندما قامت شاهرة قامتها المتوسطة، ومشت مسفرة  
عن خطوط جسدها التي لا تبرز عبر قميصها وينطلونها،  
تساملت خفية عما إذا سبقني شخص آخر إلى هنا؟ أحقا لم  
يهتم بها أحد؟ وهل أمضت المدة السابقة وحيدة؟

مرة أخرى بدت خارجة من الغرفة الداخلية، رواقها المنزلى  
مضموم إلى جسدها بحزام عليه نقوش صينية، فيما بعد قالت  
بدون أن أسألها إنها لو لم تصدق إحساسها، لو لم تصبغ إلى  
بعض من سيرتى - أفضى بها صاحبي - لما أقدمت ودعتنى.

عرفت من قبلى آخرين؟، نعم.. لكنهم لم يدخلوا هذا المكان.  
قعدت متخذة وضعا الذى صار علامة عندي، ودلالة على  
وقت، وإشارة إلى نعيم!

إحاطتها ركبتيها بيديها. ميلها قليلا، بروز استدارتها،  
خصرها الهامس، ريفها الثريان، الحكمان، لاتدركهما زيادة  
ولا ينالهما فتور، نهذاها المتطلعان، ثمارها لم يتطرق إليها شك  
مع أنها تدنو من الأربعين، تماثلنى، ولدنا العام نفسه، تسبقنى  
بشهر، جاءت فى أبريل وتبعته فى مايو.

نزل على صمت عندما واجهت كينوتتها المترقبة، بدء سفور  
جمالها بلا حد، تتألق عينائنا، تدفق منهما حيوية، نظرت  
دهشا، راغبا، ساعيا. متعجبا..

— ماذا؟

لكم استعداد تلك اللحظات التي تجتاز فيها الصلات  
فواصل حاسمة، فيتقرر مصير أو تبدأ رحلة، تقدمت بصوبها،  
كان كل مايمت إلى مؤديا إليها، وكل ماينبعث منها وافدا إلى..

### المقهى..

#### بالتحديد..

هذا المقهى وليس غيره، طلاء المدخل الياقوتى، والنقوش  
الفضية على زجاج الأبواب، ومقاعد البسيطة ذات الحضور  
الذى يوحى بالإنسان إلى درجة ما!

جنته معها والصبح باكرا، كنت مجهدا إثر ليلة لم أنم  
خلالها، كل ماعرفته جديد على، صعب هجوعى فى مكان لم  
ألفه، وإن تأثرت باستكانتها بين ذراعى، حتى أننى أحطتها  
متنسما مشارفها، مع أننى أسعى إلى الوحدة عند المضى إلى  
الوسن.

تأوينا كل فى الآخر، رغم تعبى كنت مقبلا على النهار  
الجديد، مستبشرا، متأهبا للصفح الجميل، واثقا أننى لفترة  
طويلة سوف أسترجع وأجهات البيوت المظلة، وتساقلى بدھشة،  
كيف يبدو الميدان أفسح مما رأيته عند عبورى ليلاء، كيف لم  
أنتبه إلى هذا المقهى عند مرورى به؟ كيف لم يخطر ببالى أنه  
سوف يستمر معى كعلامة، كإشارة، كباعث ذكرى وحاض

على دفع الدم أسرع، ولهاتئ النبض بمجرد استعادته،  
بالتحديد فى تلك اللحظات النهارية الأولى.

يقع على ناصية، الجانب الذى اعتدنا الجلوس فيه مطل  
على شارع جانبى عتيق، غير مسموح للعربات المرور فيه،  
يتوسط بدايته عمود حجرى قديم، على جانبيه تطل مطاعم  
مغربية، وصينية، وأرمنية، وأذربيجانية، وشامية، وإيرانية،  
وأفغانية مفروشة بالبسط، وبقالات تباع الفلفل والبهارات  
واللبان الجاوى والجبن الأبيض الإستامبولى، والزيتون  
والليمون والفلفل المعتق، مكتبات صغيرة متخصصة، واحدة  
لاتعرض إلا كتباً فى النخيل، وأخرى لا تباع إلا مؤلفات عن  
الإبل، وثالثة يمكن العثور فيها على أى كتاب حول الديانات  
القديمة، ومكتبة يسعى إليها كل من يدرس الأحلام وتفسيراتها  
وتأويلاتها.

قالت إن هذه المكتبات بدأت مع الجامعة، القرن السادس  
عشر، كان الحى كله لإقامة الطلبة لكن ثمة تغيرات طرأت.

اجتئزنا المدخل وكأنا اعتدنا المجيء معا منذ سنوات طويلة،  
كانت هادئة جداً، وثيرة الملامح، ناعمة، وعندما دنت منا سيدة  
المقهى ابتسمنا، حسناء راسخة، عبرت أربعين على الأقل،  
ابتسامتها دائمة حتى مع تماس شففتيها، بينهما مودة،  
حوارهما يتخلله إغماض عينين أسفاً، وزم شفقتين، وأداء  
حسرة أو تأس.

تشير إلى، تنطق اسمى مجردا، تمد السيدة يدها مرة أخرى، تقول بعد أنصرافها إنها تعرفها منذ سبع سنوات، منذ مجيئها إلى هنا، قالت إنه ركنها الأثير. من هنا يمكنها تأمل الساعين على أقدامهم، والميدان، تجيء مكررة، تشرب قهوتها، تاكل شطيرة أو كعكة، لا يعقبها زاد آخر إلا قرب الغروب في البيت، مابين المدرسة والبيت حوالى ساعة، عملها على فترتين، أما الجامعة فلا تذهب إليها بانتظام، إنما لمقابلة الأستاذ المشرف على الرسالة، يتناقشان بعض الوقت، لا يحدث هذا إلا مرتان أو ثلاث كل شهر.

قالت إنها استغرقت وقتا أطول من المقرر لإعداد الرسالة، كان ممكنا أن تنتهى منها خلال العامين الماضيين، لكن هذا يعنى إلغاء مبرر وجودها، إقامتها هنا، إنها تحصل على التصريح كل سنة لأنها تدرس، لكن بعد الدكتوراة عليها أن ترحل، لا ترغب فى العودة لأن هذا يعنى المخاطرة..

قالت إن شقيقها فى المعتقل منذ ثمان سنوات، إنه مازال حيا لكن لا تدرى ماذا سيصير إليه الوضع، مايمكن أن يحدث لها فظيع.. فظيع، إنها تشارك فى نشاطات المعارضة هنا، نعم.. فى عودتها مخاطرة.

قالت إنها تخطط للاستقرار هنا.

لم تفسر. لم أشأ السؤال عن كل شئ مرة واحدة..

قالت إن أمتع لحظاتها هنا عند سقوط المطر أو الثلج،  
ورؤيتها له من وراء الزجاج.

قالت إنها لا تذكر القائل: إن العاصفة تكون جميلة إذا كان  
البيت قويا.. أدارت فنجان القهوة بين أصابعها، صامتة، لكن  
وجهها ضاح بالحيوية، هيئة لم أرها إلا في ذلك المقهى، لكم  
اجتهدت محاولا استعادتها حتى أدركنى الكلل، أحيانا تمرق  
أمامى بدون توقع أو تهيق، الصباح الأول، لكم جئنا إلى  
الموضع ذاته، عصرا، ظهرا، ليلا، فى أيام الأحد حيث تغفر  
الشوارع والميادين، لا أستعيد المقهى إلا عبر هذا الصباح حتى  
وان تذكرت حوارا جرى فيه ليلا، فى أقصى البعد أستشعر  
سخونة رشفة القهوة التى سرت وأنا أنطلع إليها.

نزلت المدينة فيما بعد سبع مرات مابين زيارة دامت شهرا،  
وأخرى لم تتعد ثلاثة أيام، دائما أسعى إليه، مزارى الخاص،  
أمل رؤيتها صدفة، غير أن ذلك لم يحدث قط مع أننى رأيتها  
بدون ترتيب فى أوجنا، بل فى أيامنا الأولى.. بالضبط، فى  
مواجهة هذا المقهى.

ذلك أن صاحبنا لى أظهر ودا، عناية، صحنى إلى ما أجهله  
من شوارع الحى القديم، دلنى على واجهات جميلة تنتمى إلى  
القرن الثامن عشر، ومداخل بيوت منمنمة، دعانى إلى غداء  
بمطعم تونسى عليه إقبال، نويت دعوتها إلى المكان عينه، حتى  
استعيدته مقترنا بها، رغم طول تجوالى فى المدينة فلم يعلق

عندى إلا ما ارتبط بها. أينما وليت وجهى فى أنصائها يحوم  
فكرى حولها، فإما أستعيد لحظات أمضيها. أو حوارا جرى،  
أو أتخيلها فى الأماكن التى لم أصحبها إليها، مثل مدرستها،  
أو جامعتها، أو متعجلا لحظات ستجمعنا، أو متخيلا العبارات  
التي ستنبادلها عند اللقاء، أينعت علاقتنا بسرعة ونما اتصالنا،  
كان وجودى المؤقت يخلق قوانينه الخاصة، فالיום من مدتى  
يوازى شهرا إذا قيس بالحالة الطبيعية، كنا نتعرف معا إلى  
الموجودات من جديد، وكأننا ندركها لأول مرة، كنا نعتاد  
الضوء معا، جسد كل منا يآلف الآخر بسرعة، حتى أن حوارا  
بالصمت سرعان ما يتصل بين مسامنا وأطرافنا وجوهنا حتى  
إذا أينعنا وتجاوزنا أول حد الذروة، لم أعد أدري، أهذا  
وجودى المادى أو وجودها؟ أهذا جسدها أو جسدى؟ تتداخل  
حواسنا، وتنصهر ماديتنا، فينتفى التمييز والفرق وتنعدم  
المسافات الضئيلة الفاصلة ما بين الأصل والظل، ما بين الغصن  
والجذع، لكم استعدت فى غريتى عنها لحظة مولية تنتمى إلى  
ذروة الصحبة، فيدركنى ابتهاج، وأوشك أن أبادلها النظر  
والحوار والمودة، بل إن وهجا يسرى من روحى إلى جسدى  
فأشعر!

فى مشيى الوئيد، فى سعين الحثيث، عند عبور النواصى  
والميايين، عند تأهيب اجتياز المداخل، عند وصولى أو إقلاصى،  
تصحبنى حالة تنبعث دائما فى أوج عشقى، إذ أثق من رؤية  
المحبوب لى أينما وليت وجهها، فى شتى حالاتى، يتطلع إلى من

نقطة خفية يستعصى رصدها، علوية، سفلية، لا تستند إلى  
يابسة، ولا بناء، ولا نهر ولا بحر. يضاف على هذا سلوكا  
خاصا، وانضباطا، فكل ما يصدر عنى يرقبه الحبيب.

هكذا مضيت مع صاحبى إلى الشارع القديم، قال إننا  
سنرى بعض المكتبات القديمة. أخفيت ابتساما ودهشة وشوقا  
وحذرا. أما الابتساما فمبعثها حس ساخر، لجهله مجيئى  
اليومى إلى تلك الناحية، وإقامتى فى بيت أرى فيه ذاتى لأول  
مرة سافرة، كما أننى توقفت مرارا أمام واجهات المكتبات. إذ  
أننى أجيء نهارا قبل موعدى بربع، بنصف الساعة، أرغب فى  
اتخاذ الحيلة وفى الوصول قبلها حتى يكون من حظى التلقى.

أما الدهشة فلصلتى بالمكان. هل كان خفق قلبى سيتردد  
بهذه القوة لو أنها لم تكن تقيم على مقربة؟ لو أننى لم أسع  
إليها هنا، لو أننا لم نتطلع عبر زجاج المقهى؟ هل كنت سأطلع  
برفق وحنو إلى المقاعد والمناضد والموضع الذى اعتدناه، حتى  
لأتمنى تقبيل كل شبر، والانحناء أمام كل زاوية؟ هل كان  
خطوى سيتخذ هذا الإيقاع الذى لم أعتده منى؟

أما الشوق فإليها، والرغبة فى سلوك الطريق صوبها  
مباشرة، عبور المكان كله إلى موضعها، إلى أى حيز تتحرك  
فيه.

أما الحذر فلخشيتى أن يسفر عنى ماينم على، كنت أرغب  
الحديث عنها، وصفها، قص ماجرى على الناس، لكننى كتمت

لأنها لم تبتد إشارة الإفضاء والجهر، وما التزامى إلا من عناصر أدبي مع المحبوب. كنت أعرف أن موعد صاحبي يقترب. وأنه سيفارقنى بعد قليل. لابد أن يصحب زوجته طيبة التحاليل بعد انتهاء عملها فى المستشفى الدولى.بقى على لقائنا ساعة وربع. قررت أن أمضيها منفردا فى المقهى.

خطونا تجاه الساحة، توقفنا عند الرصيف، بالضبط أمام الجانب الآخر من المقهى، فجأة.. تبدل الفراغ وتغيرت الكينونة، يتخذ الطريق حضورا مغايرا فيصعب إدراك الأشياء، فى البدء لم أستوعب، لكن بعد اكتمال ورودها على بصرى فهمت.

تقف على الناحية الأخرى من الطريق تضع يديها فى جيبي سترتها، تتطلع إلى، مبتسمة، ابتسامة سوف أراها مستقلة، بمفردها، فى أوقات شتى، ويقاع قصية، لكننى لن أدركها، ولأننى رأيت سناها عرفت أنها شاهدتني قبل أن المحها. لم أنتظر إضاءة اللون الأخضر. عبرت الطريق مسرعا مع خطورة ذلك، وشدة عاقبته. أبدت جزعا ولكننى لم أعبأ..

- لست بمفردك..

استدرت تجاه صاحبي الواقف هناك.

- صاحبي عبد الله.. لم أذكر لك شيئا عنه..

قالت مبتسمة:

- أمور كثيرة لم تفض بها إلى..

قلت:

- الكتاب لا يقرأ مرة واحدة..

عبر صاحبي، بدأ مدركا للأمر، انحنى محبياً، التفت إلى..

- إلى الغد..

قال مداعباً:

- لا تعبر واللون الأحمر مضاء مرة أخرى..

لوحث، استدرت تجاهها.

معقول هذا؟

نلتقي صدفة؟

في هذا الموضع بالذات؟

لو أننا لم نلتق، لو أن كل منا يجسهل الآخر، كيف كنت  
سأطلع إليها؟ كيف كنت سأرى ملامحها؟ هل كانت ستعبر  
للمحة، قد تبقى ملامحها في وعيي لحظات، تعاودني أياً ما ثم  
تغرب، ماذا كان يمكن أن يكون لو أن ما كان لم يكن؟

حدثتني وهي دانية مني، إذ تلامس بمؤخرتها ركبتي وتحيط  
عنقي بذراعها..

- مدخلك.. هو صراعك مع الوقت..

فوجئت بسداد فهمها، ذلك ما استعصى على كثيرين،

كأنها تسفر عني، قبلتها ..

- أخشى انقضاء وقتك ..

لا مست بمقدمة أصبعها صدرى ..

- لا .. إنما تخاف لانقضاء زمنا أنت ..

صحيح!

لم أجادل، عندما نطقت كان يشغلني حقا إفلات اللحظات  
التي تطويني، تلف كل شيء ، انشغالي بلحظة سأقلع فيها نائيا  
عنها، عندما تنتهي غريتي الموقوتة بعودتي إلى وطني لتبدأ  
غريتي الدائمة.

ما ظننت قط أن المكان واحد والمصائر شتى، حتى قصدت  
ذلك المقهى ذات صباح، في الموعد عينه. التوقيت الذي جننته  
أول مرة ولكن في زمن مغاير بعد انفصام العرى ..

سيدة المقهى بدا عليها وهن، جاءت متباطئة. أعادت ترتيب  
الأكواب والمفرش فوق المنضدة، لم أكف عن التطلع إليها لعلها  
تلمح، لعلها تعي.

لكم تبادلنا معها الحوار المرح الضحك. كنت أناديها:  
«كونتيسة» لهيبة مظهرها. وأناقة حضورها. كنت أنطقها  
بلهجتي، تصحح صاحبتني، تعيد لفظها كما ينبغي، لكم  
سألتني عن الأهرمات، عن الأقصر، عن بورسعيد، كان أحد

أعماها يعمل فى شركة القناة قبل التأميم، فى كل مرة تذكر  
صاحبها التى زارت مصر وأمضت شهرا . تفيض نشاطا إذ  
ترانا، تتدفق حيوية إذ تلمح تساررنا وتلاقينا!

فى تلك المرة تطلعت إلى منتظرة ما أرغب شربه أو أكله،  
أيقنت محوى عندها، كأتى غريب يطرق المقهى أول وآخر مرة،  
عابر ليس ضروريا الاهتمام به.

هل تعرف بانقضاء ماكان بيننا؟

لكنها تروح وتجىء محايدة تماما، بعد لحظات أسأل  
نفسى: لماذا جئت إلى هنا؟، ماذا أنتظر؟

تتقلقل جلستى، أبدا.. ليس هذا المقهى الذى الفته يوما،  
وعرفته. ويا للأسفى.. ليس المقهى بمفرده.

### ضيقة الأزقة..

.. وتلك ناصية مؤدية إلى شارع ظليل اجتزنأه على مهل،  
أوله مكتبة متخصصة فى رسائل المشاهير، تعرض صورا منها  
مغطاة برقائق الزجاج، ثم تتوالى الواجهات الضيقة، والأبواب  
الخرجة، على الأرفف مجلدات قديمة، وعلب خشبية روسية،  
وحلى من فضة يمنية، وخزف صينى، وتماثيل خشبية أفريقية،  
واقنعة أرتكية، وجلود مغربية، وخشب مطعم من مصر، علقت  
أول مرة ضاحكة:

- أنما أجيء للفرجة..

أشرت إلى علبة سوداء صغيرة، فى حجم راحة اليد، مغطاة  
برسوم ألوانها زاهية..

- أسعار مرتفعة جدا..

أومأت.

- وهل تجد من يشتريها؟

قالت:

- ولماذا عرضتا إذن.. كثير مما أراه يختفى على الفور..

هذا طريق تسلكه متمهلة، معرض حتى. ترتاده عند  
العصرى، فى الأيام التى تخلو من المطر، وتخف أعباء عملها،  
أتأبط ذراعها، أو تتعلق بى، إذ تتوقف مطولا أمام واجهة تتطلع  
إلى. تبسط أناملها تغد إلى شعرى، تلثم وجنتى، أو تميل حتى  
يلامس رأسها صدرى. لخشونة أيامى لم أعتد إبداء هذه  
الرقعة، أرتبك إزاء حنوها المغدق، قد أنطق كلمتين عبر غممة،  
أو كلمات لا رابط بينها، أو أولى النظر إلى غير جهة المحبوبة  
حتى لا يلوح وهنى ويفتضح أمرى.

لكم استدعيت فى زمن كرى لفتاتها نحوى. فكان مجرد  
حضورها بالمخيلة يهدئ أمرى ويبسر حالى، فكاننى تزودت من  
لحظاتها لأيامى الصعاب. كأنها حضنتنى، حوطتنى بالأسرار  
المانعة للأذى وقحط المخيلة، أغدقت على غيثا يروى جذبى حتى

فى غيابها، ما البال إذن لحظة صدوره؟ عند اقترابها وإقبالها. أما إحاطتها لى عند بدء هجوعى فأمر أنوى لو اتسع المدى افراد كتاب خاص أشرح فيه الحال، فلو فتحت الكلام فيه لضافت العبارة، ولما استوعب الحيز. إنما نويت الآن ذكر كل ما ارتبط بها من أماكن مررنا فيها أو أقمنا بها معاً، دافعى إلى ذلك بدء، وهنى، واتساع الشقة بيننا، بعد ترددى مراراً على المواضيع عينها، فكل أمرى. حتى المخيلة التى اعتصمت بها ملتصسا العون خذلتنى.

أزقة ضيقة، عتيقة، مبللة بندى خفى، مطاعم راسخة. تقدم المأكولات التقليدية، أطباق من الجنوب، أو الشمال. معظمها ينقرض الآن، تنتشر مطاعم الأكل السريع. هذه الشركات الأمريكية!

إنها تحب الطعام الجيد، الغريب، تستمتع به إذا وجد.

وإذا ضعفت الإمكانيّة؟

قالت:

— أرضى بالمتاح اليسير واستمتع!

قالت أمام واجهة تعرض السجاد التركمانى الغالب عليه لون الياقوت النارى، إنها حريصة على ألا تريط نفسها بعبادة ما حتى لاتجد نفسها عاجزة إذا ماتغير الحال، تعلمت الشبع من القليل، وارتداء مالدِيها وليس ماتريد، أن تتمدد أحياناً فوق

الحشية التى تلامس الأرض مباشرة أو فوق السرير، فى أى ظروف يمكنها النوم، منذ مجيئها إلى هنا تقلبت فى ظروف شتى، عملت جليسة أطفال عند أسرة البانيه، وعالة تليفون فى سفارة دولة عربية، لكنها هجت عندما حاول معظمهم مضاجعتها، وموزعة إعلانات، تطوف المدينة على قدميها لتضع فى صناديق البريد الإعلانات المجانية، وموظفة فى متجر يبيع الأقمشة، وأخيرا.. مدرسة لأطفال المهاجرين، فى بلادها كان والدها ميسورا، مهيب الجانب لماضيه الوطنى، وأشعاره التى قرر بعضها على المدارس، لكن.. بعد اعتقال شقيقها اختلت أمورهم، وتفرق الإخوة فى البلاد، الصغرى فى أمريكا، متزوجة من طبيب، ولكنها ليست سعيدة، واستمرار حياة كهذه خطأ، قالت إن العلاقات تبدأ لتنتهى، وعندما تستنفد مضامينها يجب أن تتوقف، أما استمرارها بعد ذلك فأمر معذب..

قلت إننى أخشى هذه اللهجة.

- ليست الحياة كذلك؟

قلت إن هذا حق، وما تنطقه صدق، ولكن حبنا أبدي.

ضحكت، ابتسامتها الغامضة، المحيرة، القادمة من عمق صدرها.

- إذن.. أبدي أبدي..

أمام بيت نحيل الواجهة، بارز النوافذ توقفتنا.

- تمنيت سكناه..

قلت إن عمارته، وهيئته، وخطوطه توحى بالشجن، لست  
صدري بأصبعها الذى انبعث فجأة.

- ولهذا السبب أحببته..

ثم قالت:

- عجيب.. كيف أسركت؟

أسفرت عن فرحة أولى، غضة، تلقائية لاتفاقنا فى الرؤية  
والاختيار بدون ترتيب، أحببت ردود فعلها فى تقلبات أحوالها  
المختلفة، كانت تخف وتشف فى أماكن بعينها، بيتها، الحديقة  
الملكية، المقهى. تسفر عن أنثويتها الضاجة إذ تتأبط ذراعى  
وتمشى فى هذا الطريق، عرفت منها درجة نادرة من الدلال  
السيال الرقراق، لم يلح إلا عند تسكعنا أمام تلك الواجهات،  
سرعان ما يختفى ويتبدل بجدية وشجن إذا ولجنا قاعة عرض  
لوحات، كانت فى الطابق الأول من بيت ذى شرفات حجرية لا  
مثيل لها فى بنايات المدينة، كان على الناصية المؤدية إلى  
تلايف من الطرق الضيقة. فى أحدها يقع المنزل الذى يسكنه  
صاحبنا هذا، ولكننى مرجئ هذا إلى ما بعد الحقائق، فالأماكن  
داخلى لها ترتيب يطابق مايمت إلى، بغض النظر عن محالها  
فى الواقع..

## حدائق الرغبة..

مهما تبدلت المعالم، لا يمكن أن أضل طريقى إلى هذا المقعد بالذات، بالضبط.. فى مواجهة النافورة الوسطى، على هيئة زهرة لوتس، يتدفق منها الماء بقوة نائرا رذاذه، متحولا إلى أطياف ضوئية، بعد خلو عالمى منها، جئت بمفردى، فعدت فوق مكانها المفضل، رأيت ماكانت تحديق إليه وتصغى، نصاعة الماء، وألق الضوء. اصطدام القطرات المتساقطة ببعضها قبل ملامستها رخام القاعدة. أودعت فى الفراغ أثرا غير مرئى، إلى هنا جاءت لتطوى الوقت وتستدعى المراحل. أيام الأحد والعطلات، تضى ساعة أو ساعتين، عندها يبعث تدفق النافورة راحة، لكننى لم أعرف مثلها عندما سعيت إلى الموضع ذاته فى محاولتى العائرة اقتنفا. زمنها المندثر، وسعيت بمفردى لاسترداد أماكن جمعتنا وصاغتنا صياغة أخرى.

فوق هذا المقعد، تطلعت إلى الأمام ساهمة وتبعث نظراتها المهاجرة، ملت عليها قبلتها، تنسمت عبيرها، كانت رائحتها نكية، خاصة، لا تشبه أى أنثى أخرى، لها مصادرها الخفية المستعصية على الرصد. قالت يوما وهى متجردة، سابحة فى جلال عريها أنها تفضل الروائح الطبيعية، ولا تضع المساحيق، تعتبرها زيفا يجب ألا تلجأ إليه، أما ماثير غثيانها وسخريتها فرجل يصبغ شعره.

هنا رحبت أحده من بعيد سعيا إلى معرفة كنه علاقاتها  
الماضية، والآنية، أبدأ بالسؤال عن صاحباتها في موطنها  
الأصلى، صديقاتها هنا، بحذر أقرب من علاقتها بالرجال،  
خاصة هذا الشاب، استفسرت عن مشروعه الدراسى، عن  
أويقات تلاقيهما، تطلعت إلى هادئة، لم يفتها اهتمامى، ولم  
يغب عنها مصدره..

- تهتم به كثيرا..

- أريد أن أعرف كل شئ عنك..

- عنه أو عنى..

- عنك أنت..

تقطع الحوار آية إلى صمتها الغامض، كنت أخفى  
اضطراما. ساعيا إلى سبر أغوار قد تخفى ما يكرينى، ما  
أخشاه، راغبا فى الوقوف على معرفة حدود علاقاتها  
بآخرين.

عصر أحد قمنا بتجول فى الحديقة، وعندما تكاثف الشجر،  
وغزر العشب، تمددنا، كنت منتشيا برائحتها التى امتزجت  
برائحة الحشائش والأرض غير الممهدة، ارتكزت إلى مرفقى،  
فوجئت بعمق عينيها وخصوبة وجنتيها، جمالها المتصاعد فى  
هدوء كزحف الظل، لا يلحظ إلا بعد اكتماله، وقع امتزاج بين  
عناصرى ومكوناتها يستعصى الإفصاح عنه، يجب أى معنى.

بسطت ساعدى تحت خصرها فدغدغنى التناقض بين رفته  
ومشارف الردفين المتلتين، فككت أزرار قميصها مستقبلا  
نفور نهدها الأيسر بشفتى..

- انتظر.. هنا صعب.. صعب..

لم أقدر على الكف، غير عابئ بما يمكن أن يبرز فجأة، لم  
يحدث ذلك منى، لكن عبارة مارقة ترددت عندي قالها صاحب  
لى أمضى سنوات هنا. قال إن لممارسة الحب فى الغابات  
والحدائق شأن آخر.

استدعيت ما رأيته فى شريط سينمائى عندما تجردت  
البطلة تماما وراحت ترقص على حافة النهر ملوحة للبحارة  
العابرين.

لم أتوقف، أكملت سعى، وعند لحظة معينة تحولت  
مقاومتها إلى مجاوبة، لم أنه عادتى عن التحديق متطلعا فى  
أوجى، وجهها حديقة من الرغبة، وتاريخ كامل من ثراء أنثوى  
غزير، دفست أنفى ما بين عنقها والكتف. فاتصلت بالأرض،  
جنور النبات، التراب المندى. الهواء النقى المرتد، الزرع  
الغامض، الشجر الغامض، ملح جسدها. كنت أحتوى هذا  
الموضع كرمز للكوكب كله. وعبثا حاولت الوصول إليه فيما تلى  
ذلك، فكأنه تشرى بندا..

## غرفة الضوء..

.. لم أعرف ولم أنزل فنادق المدينة، دائما كنت ضيفا على صاحب لى جاء البلاد منذ سنوات وأقام. استقر فى مبنى قديم، فى كل طابق مسكنان. ولكل غرفة صغيرة فوق السطح، يقولون إنها غرفة الغسيل، أو لإقامة الخدم، ولكن مع ازدياد حدة السكنى بدأ تأجيرها، خاصة للأجانب، غير أن صاحبي الحميم لم يقدم، وضع فيها فراشا بسيطا، ومنضدة صغيرة ومقعدا، وثبت أرففا إلى الجدار رص فوقها الكتب، وأطلق عليها الصومعة، قال إن المرء يحتاج إلى الوحدة والانفراد بالذات، مرة أو مرتين كل أسبوع يفارق امرأته وابنه طالب الجامعة ويحجى ليمضى ساعتين أو ثلاث، وربما يقضى الليل، عند وصولى يلح على أن أقيم معهم، ولكنه يستجيب لرغبتى. الإقامة فى هذه الغرفة الضيقة، القريبة من السماء، المطلة على المدينة، معظم المعالم الشهيرة تلوح من هنا.

هنا.. تعددت مرات لقائنا، قلت إننى أرغب فى ارتباط المكان بها، بوجودها، بحضورها، ثم اعتدناها معا، كانت تجئ إلى محطة القطار القريبة، أنا المنتظر دائما، كنت أعجب من قدرتها على الوصول فى موعدها بالضبط.

ذات ظهيرة رائقة، بعد تناول الغداء فى مطعم صغير قرب الأوبرا، احتسيت نظراتها، وكنت على استعداد لإشهار السلام

مع الدانى والنائى، ونسيان كافة كدوراتى، ومشاحناتى  
وخلافاتى، كنت على استعداد للرحيل صوب اللاجهة، حال  
غريب لم أعهده، مماثل لهواجمها المباغته، تقول فجأة وهى  
قربى:

- إننى خائفة..

- من أى شئ ؟

- لا أدرى.. لا أعرف..

تنكمش، تزداد اقترابا، لكنها تتقوقع أكثر، قالت إن الخوف  
المباغت من الوحدة يفاجئها رغم مضى الأوقات الطوال عليها  
منفردة. أحيانا.. إذ تغمض عينيها أثناء غسيل وجهها أو  
استحمامها يخيل إليها أن أحدهم يقف خلفها، وأنه على وشك  
الانقضاض فجأة، كانت تخشى إغماضة عينين لا يعقبهما  
صحو، تخشى موتا طارئا. مفاجئا، بقاء جسدها مسجى فى  
البيت الصغير حتى يكشف أمرها مصادفة..، إذ أصغى إلى  
ألفاظها القليلة. المضطربة، أضمرها بحنو شفاف فتستكين  
تماما. عندئذ أرصد هجرتها صوبى. فأود لو صرت منها فى  
موضع مع البيضة من صفارها، أو حدقة العين من سوادها،  
إذ تخفى ملامحها فى صدرى تنقلب فى لحظة إلى طفلة وجلة  
تخشى عالما مجهولا.

ظهيرة هذا اليوم خرجنا من المطعم، نوسع الخطا فى

الشوارع الخالية، تسبقنى رغبتى. تكاد هيئتى تشى بى، عبرنا  
النواصى. صعدنا السلالم الثابتة والمتحركة. وعندما زوينا إلى  
المكان المحدد بدا من أمرنا عجباً. نال التعب منا فلم نفق إلا  
والليل مكتمل، كانت الحجرة تضاء بأصداء ألعاب نارية تطلق  
للمناسبة ما، أصغيت إلى أنفاسها الهادئة. المنتظمة. تحملت  
خدر ساعدى إذ لم أشأ إزعاجها. فوجئت بهمسها فى  
الصمت:

- صاحى؟

- نعم.

قالت بهدوء إنها تريد أن توضح أمراً، لا يوجد بينها وبين  
أى شخص علاقة خاصة، قالت إنها لاحظت كدرى بعد زيارتنا  
إلى ابن بلدتها هذا.. بعد صمت يسير. قالت:  
- يجب أن تفهم ذلك..

عجبت لهذا التوضيح المفاجئ، المتأخر. استوقفتنى اللهجة  
الصارمة تقريباً، أو هكذا بدت، لزمّت صمتى. ولم أستطع  
إقصاء صورة هذا الشاب عنى.. جامنى صوتها فى العتمة  
أكثر تحديداً..

- يجب أن تثق بى..

كلماتها كالبرقيات. مركزة. خاطفة، قالت إنها تفهم كل  
تلميحاتى. والغرض من استفساراتى، ثم أشارت إلى الفراغ..

- لم يحدث هذا بسرعة إلا معك..

ثم قالت:

- ومادمت معك فمستحيل وجود آخر..

كنت مفاجأ. حائرا. وكان وجود هذا الشاب يدنو مني..

### غرفة الصدع..

. عبثا استعادة الطريق الذى سلكناه.

مستحيل تذكره. كائننى راغب فى محوه، لكم مررت  
بالمداخل المؤدية والميادين المفضية فلا أستدعيه بفكرى، وربما  
مررت أمام المبنى الذى يحوى تلك الغرفة فلم أره.

يوما تقدمتني مبهجة. مقبلة. ضاحكة، عندما فتح الباب  
الخشبي القائم لم تصافح الشاب الذى بدأ فى ملابسه المنزلية،  
إنما وضعت يدها فوق كتفه وقبلته مرتين، بابلها اللثم. مرة  
على الوجنة اليسرى. وأخرى على اليمنى.

استهجن ذلك وكتمت، مع علمى إنها عادة مألوفة فى تلك  
البلاد، هى منذ سنوات سبع هنا، رصدت بدقة تدفق مرجحها  
وسفور بهجتها. توهجها، مد يده متحفظا. قالت:

- حدثك عنه..

التفتت إلى، أمسكت يده، ثم يدي، غطت الاثنين براحتها.

شبت إلا أنني لم أجد ودا، أو استجابة لجياشها. استندت إلى الجدار، حشية فوق الأرض للنوم، مكتب صغير فوقه ملفات وأوراق وكتابتان فقط وكوب صغير من خزف تطل منه أقلام، ثمة شبه ما بين ترتيب الغرفة هنا، وحجرتها هناك، أعرفها الآن من الظاهر والباطن، ما يرى وما لا يرى منه، الصمت الذي يعبق به الفراغ. الضوء النهاري، وهنه وخفوته بعد اسدال الستائر الشفافة.

حجرتي صارمة الاضلاع، أضفى فراغها بعدا مضاعفا، في مواجهة الباب صوان نحيل يصل ما بين الأرض والسقف، فتح جزءا مريعا منه، برز موقد كهربائي، من جزء آخر تناول طبقا به حمص مطحون، وطبقا به قطع من الطماطم المملحة وشرائح باذنجان وفلفل اخضر، وضع مقلاة من الصاج، خفق البيضات الست، سعت إلى قالب الزيد. وقطعة الجبن، بيدها اليسرى مسكت السكين، كانت تكتب بها، وتشير، وتؤكد، تعرف مواضع الأطباق، والملاعق. تتصرف بتلقائية، تقدمت.. أشارت..

غاضبتني صيغة الجمع. حنقت من اعتبارها إياي ضيفهما، بدأ ركود داخلي، لم يرق لي تبسيطهما معا. حوارهما باللهجة الشامية، مأواها ومسقط رأسها هناك. ابن مدينتها، لابد أن تاريخا طويلا يربطهما، لكن.. إلى أي حد؟

في هذه الغرفة بدأ وسواسي!

كيف تتحدث إليه عندما تجيء بمفردهما؟

الحشية المستطيلة، المفرودة فوق الأرض، هل تمددت فوقها؟

هل تجردت هنا؟

فى ليلتنا الأولى معا راحت وجاءت ببساطة، غير خجل،  
واجهتني مقبلة ومدبرة، مع أنني جلست متكوما وحاولت بسط  
ملاعة بيضاء لأخفى ما بدا.

هذا الشاب، هل رأى إغماضة عينيها وعض شفتها السفلى  
عند ملامسة مشارف عالمها الحسى. هل تطلع إلى انفراج  
فمها المتمهل، ما أثار عندى رعشة المتعة، هل أحكمت ضم  
نراعيها حول خصره، هل أصغى إلى توتر جسدها وانفراجاته  
التواليّة عند بلوغها الأوج؟، هل أصغى إلى دعيتها وسكونها  
عقب إيوائها إلى الرضى. هل ترددت أهاتها هنا؟

- تبدو شاردا..

استعير ابتسامة من بعيد..

- لماذا لا تأكل؟

قال صاحبها:

- لا تؤاخذن .. إنه أكل الطلبة..

بالعكس!

حاولت إبداء استحسانى، واستمتاعى به، سألنى عن المدة

التي سأقضيها هنا، نصحني بزيارة متحف الفن الحديث. ثم قال إنه يوجد متحف لكل ما يمكن تخيله هنا، لا أدري كيف تداعى الحوار حتى وصلنا إلى الانتحار. بدأ منفعلا وهو يتحدث عن الموت الإرادى، أفاض. رأيت فى نبراته تكلفا ما، انتبهت إلى تطلعها. إصغائها، هل تشاركه أفكاره؟ قلت لنفسى إنها هموم مجردة لمن يعيشون بعيدا عن أوطانهم.

عند انصرافنا أبدى أسفه لأن صاحبتة اليونانية لم تأت. ارتبت، هل له صديقه فعلا؟ أو أنه يقصد التعمية؟

عندما فارقت الغرفة تنفست بعمق، كأننى أخرج من قبر. عند الناصية سألتنى عن صمتى. هل بدأ منه ما يضايقنى، هل أخطأت بتقديمه إالى؟ لم أقل إجابة واضحة، إنما تطلعت إلى الخلف. وعندما اختفت البناية لم أستدل عليها، لم أهتم إليها حتى الآن، حتى ملامحها زالت. عبثا حاولت استعادتها عندما دنا موعد زهابها، قالت مبتسمة:

ـ مالك ؟

ـ تعرفين أن أيامى هنا محدودة، وأن مدتى قصيرة ما أرجوه أن أراك منفردة..

ـ تضايقت؟

ـ لا..

ـ إنما أردت أن أعرفك بالأقربين حتى ترى عالمى

ضغطت يديها.

- أنت عالم بأكمله.. ما حاجتى إلى الآخرين حتى أعرفك؟

### شقات الأماكن..

.. نفرت فجأة واقفة، مرت بشعرها متراجعة إلى الوراء قليلا.

رأيت كبرياء نهديها واكتمال شموخها..

- تأخرت.

ظننتها ستمضى الليلة إلى جوارى، فى هذه الغرفة المظلة على أفق المدينة أعرف إصرارها الصاد إذا حان وقت انصرافها، لا يمكن إيقافها أو تعطيلها. جلست عند حافة الفراش متطلعا عبر النافذة المفتوحة، مصغيا إلى أصداء المدينة الليلية. فكرت فى اقفرار الشوارع، وخلو محطات المترو. مخاطر محدقة، قمت متاهبا لارتداء ملابسى.

- لا.. لا ترهق نفسك..

قالت إنها اعتادت الحركة بمفردها ليلا، هذا عادى هنا، صحيح.. ثمة مخاطر، لكنها قاصرة على بعض المناطق، طريقها آمن إلى حد ما، تسامحت، كيف سأعرف بوصولها سالمة، الحجرة هنا خلو من هاتف. داعبت شعرى ضاحكة:

- تقلق على..

أحطت قبتي رديفها. أسندت راسي إلى انبساط بطنها،  
كنت جالسا وهي واقفة، أتصور قلقا وشكا وضيقا، بينما  
تتعجل انصرافها، مبالغة في إبداء الرقة نحوي.

إنها تقيم بمفردها. ما الفرق بين قضاء الليل هناك أو هنا؟  
هل تخفي أمرا، إن صمتها الطويل يحيرني. تميل على، تقبلني،  
مدركة لبعض ما يدور داخلي، قالت إنها تتمنى ليلة سعيدة،  
أصغيت إلى خطواتها المبتعدة في الممر الخارجي بعد إغلاق  
الباب، أوعر وقتي ما يعقب انصرافها. أما انتظارى قدمها  
فكان مبعثا لطلاوة وخشية ممتزجة بتوقع جميل، أتطلع إلى  
الساعة، الخامسة. قبلها بثوان أو بعدها، مجرد ثوان فارقة.  
أصغى إلى وقع خطاها. قصيرة، سريعة، مهموسة، تقابل  
الأرض بمقدمة حذائها. لذا كانت تمشى بميل قليل إلى الأمام،  
قبل أن تمد يدها لتطرق الباب كنت أبارر متهللا. مفسحا.  
مستمتعا بدخولها، قبل اقترابي ويده تماس مدارينا.

ما من لحظات أبهج من سماع خطواتها المقبلة وأنا داخل  
تلك الغرفة، وما من لحظات مرتبطة بهذا المكان أستعيدها  
فينقبض قلبي ويتمرر وقتي مثل خروجها وإصغائي إلى  
ابتعادها، بعد تلك الليلة لم تعد قط إلى الحجرة، إصرارها  
حيرني، لا أدرى كم لبثت جالسا بينما أوار ممض يزداد اتقادا  
عندي.

كم انقضى على؟

لم أدر. لكننى لم أعبا بتوغل الليل. وجهلى بدروب المنطقة، فلم أتجول ليلاً إلا نادراً، أعمى دائماً ضعف الغريب، واستهدافه، فارقت الحجرة، على ورقة صغيرة كتبت الحروف والأرقام التى يجب أن أضغطها حتى يفتح الباب الخارجى عند عودتى، أما الخروج فكان ميسوراً.

خارج محطة المترو القريبة يوجد هاتف عام.

أدبرت القرص سبع مرات. هذا الرقم الذى رددته مراراً، وحفظته ذاكرتى حتى زمن قريب، عندما بدأت بعض أرقامه فى تبادل مواقعها أو المحو.

لا أحد يجيب!

أعدت الكرة أربع مرات. حتى أننى فى المرة الثانية نطقت الأرقام بصوت مرتفع، كلاً.. لا يمكن أن أضل عنها.

رنين، رنين، رنين..

أين ذهبت إذن، أين أتجهت؟ لا يمكن أن تهمل الرد، هكذا أخبرتنى عندما أطلعتنى على دقائقها، ولكننا بعد انفرادنا فى الليلة الأولى. أبطلت الجان، قالت أنها لن تستجيب لأى نداء قادم من الخارج، لاتريد إزعاجاً من أى مصدر أثناء ممارستها العشق، هكذا قالت بوضوح وصراحة، لم يكن عندها ما تخفيه، أو هذا ما توهمته، وما من لفظ تتحرج منه إذا نطقت، غير أن لفظها ناس، شحيح، تطلعت إلى الهاتف بعد محاولتى

الرابعة بائسا، حانقا، لا أعرف ماذا يجرى فى مكانها هذا؟ هل  
يرن الجرس فى فراغ يخلو منها؟ أو أخرسته عامدة؟ إذن... من  
بصحبته الآن؟ هذه اللحظة بالذات؟

مجرد رؤيتى لها بالخيال راقدة بجوار آخر تدفعنى إلى  
هذيان مطلق واضطراب جلى، لا أقدر على تخيل حاسة أخرى  
سوف تتنسم عبيرها، أو أنامل ثمر على مسام جسدها، أو  
تحيط خصرها الهش. عينان يتطلعان إليها من تلك المسافة  
القريبة؟

عناصر القلقة تلك. تطيح بى، تدفعنى إلى كل صوب،  
وتقذفنى إلى كل جهة.

هل أتجه إلى بيتها؟ إلى الشارع الذى أستعيد كل شبر  
منه، تقطعه مرتين أو أكثر كل يوم. تظهر فى فراغه عند مطلع  
الصبح وعند مغرب الشمس، تحتل من فراغه حيزا.

أعرف رمز الباب. إذا مافتحت الباب والنحاس يثقلها أبدي  
اعتذارا، لكم قلقت عند اتصالى بها وانعدام الإجابة. أنطق هذا  
وعندى شك فى وجود صاحبها بالداخل، ربما أتطلع عبرها،  
ربما أسألها مباشرة مستعيدا فى تلك اللحظة صراحتها  
الناصعة. أو أستسلم لاتقاد نيرانى. ألج فراغ الشقة، أستمر  
حتى الحجرة الداخلية. لا أعرف ردود أفعالى لو أننى رأيت  
هذا الشاب أو غيره، هل أنهار باكيا أو أتطلع إليها بقسوة، لم  
أختر بالدقة رد فعلى المتخيل.

كيف انقضت تلك الليلة؟

هذا ما يثقل على استعادته. وإن كنت أثق أنها نقطة من  
معالم تحويلات مسارى. عند الفجر عدت إلى الغرفة. لكم بدت  
ضيقة. لم تكن تخصنى، أو تخصها. ولكنها تنتسب إليها فى  
كل مرة أستعيد فراغها المحدود، وحضورها قريى. وأقبالها  
على، وحديها. وإصغاءها. وإيماءاتها. وتلك النموذج التى  
سحتها فجأة. ذات عصر على غير توقع، لماذا بكيت؟ لماذا لم  
تجيب عن تساؤلاتى. لماذا تألق حزنها بقية اليوم كмасة سوداء؟  
بعد انتفاء إمكانية لقائها، استحالة الاجتماع. سعيت إلى كل  
موضع ووطناء معا عدا مسكنها، مررت بأطوار عديدة. فى  
البداية خشيت مجرد الطواف أو الدنو من مقهى جلسنا فيه  
معا أو قاعة أصغينا فيها إلى عزف، أو حديقة تنسمنا فيها  
العبير. كنت أوهى من تحمل التدايعيات، حتى غرفة صاحبي  
نأيت عنها، واعتذرت له بأمور شتى. ويعد مرور الوقت، ومع  
تكرار مجيئى خفت موانعى فسعيت. حمت حول بيتها وأنا لا  
أعرف إذا كانت مقيمة فيه أو فارقته، أمضيت أوقاتا طويلة فى  
المقهى، وعندما جهلتنى صاحبتة أنكسر عندى أمر أجهله فلم  
أعد أعبأ بالتردد عليه، لم يعد المقهى هو عينه، ولا الطرق التى  
قطعناها معا. ولا الواجهات التى تأملنا محتوياتها. ولا الزوايا  
التي اخترنا الجلوس فيها داخل المطاعم التى ارتدناها. وعيادة  
طبيب الأسنان فى المبنى العتيق.

وصحبتى لها عند ذهابها إليه. والمصعد الضيق الذى  
ضمنا، رغم اعتيادى والفتى كانت أماكنها تبدو مغايرة، قصية،





## من رحم .. إلى رحم ..

---

ملكتم فؤادى فصار الهوى  
على رقيب ، رقيب ، رقيب ،  
فلا تقتلونى كذا عامدا  
لأنى كئيب كئيب كئيب  
وإن كان لابد من قتله ..  
فقولوا غريب غريب غريب  
مستى يجمع الله شملى بكم  
فقولوا قريب قريب قريب

من موسيقى الآلة المغربية

نوبة العشاق - صنعة متقارب

(خروج)

## وصول..

---

«شتاء لم نعرفه منذ أربعين سنة أو أكثر..»

لم يتوقف عن تدوين السطور المعتادة، متجاهلا الفضول  
البادئ عند موظف الاستقبال ذي الشارب الكئ. الاسم  
الثلاثي، تاريخ ومحل الميلاد، الجنسية، تاريخ الوصول إلى  
الأردن، عنوانه في مصر..

«تاريخ المغادرة؟»

يتردد لحظات قبل أن يكتب: أسبوع!

لا يعرف المدة التي سيقضيها، لكنه في كل الأحوال لن  
يتجاوز الأيام العشرة، ليلة واحدة فقط سيمضيها بمفرده، غدا  
قبل انتصاف النهار ستقف هنا لتدون تلك المعلومات ولكن بلغة  
أخرى، حقيبتها على مقربة، سينظر أصابعها النحيلة،

المتناسقة. المتلامسة، المنفرجة أحيانا. المتضامة حول القلم، يتخيل سرحاتها عند العناق فوق سطح ظهره، يسرى خدر، توقع بالمباهج التي استدعاها شهورا طويلة على البعد القصي، وربما تنظر إليه بفتة، سرعان ما تنقلب نظرتها إلى تأمل متمهل، واعد، بها يبدأ السعى، وإليها القصد، يعيد الالتفات إلى الصخور المتراكمة الموغة في العناقة البادية عبر الواجهة الزجاجية، قطعاً ستتجه إليها مباشرة، أنفعالاتها متأججة، حادة، متدفقة حتى لينطوى أمامها أحيانا غير قادر على احتوائها، أو التجاوب معها، كأنها ترحل أول مرة، مع أنها جابت الكوكب تقريبا.

بدا من الغد سيكون معها بمعزل، بمنأى، بعيدان عن كل نظام، يكتشفان معا ما بداخلهما. المكان الموغل في الصخور الأزلية، ما لن يبصره ستراه، وما لن تلحظه سيلفت نظرها إليه، منذ اقتراب موعد سفره الذي حدداه معا عبر الهاتف وحضورها يقوى قربه، مرة تتطلع إليه من المصحراء التي شطرها الطريق الفسيح، ومرة من خلال الوديان والمرتفعات المغطاة بالثلوج، أو عبر الغمام الذي سبحت الطائفة خلاله. بدا اقتران اللون الأبيض بصفرة الرمال والسفوح الجرداء استثنائيا غريبا عنده، يبدو الجليد منطقيا في موطنها الشمالي، لكن هنا؟

الصفور..

ياه..

لو أنها بجواره الآن، لو تم وصولهما معا، أى دهشة تبديها  
لحظة ازاحة الستارة عن النافذة الممتدة بعرض الغرفة؟

أى عبارات تصيح بها؟

من هنا يمكنه رؤية مساحة أكبر من تلك التى طالعها عبر  
الطابق الأول، لم تفقد براءة الاكتشاف قط، حتى أنها تواجه  
صباح كل يوم فى مدينتها وكأنه أول نهار يطلع عليها فى  
الدنيا.

لن ينسى أبدا توقفها المشدوه، المأخوذ، أمام سبيل عبد  
الرحمن كتخذا، توقفت فجأة ثم خطت متمهلة. استقرت عند  
مدخل درب قرمز المواجه.

تعدت فوق حجر ناء عبر الزمن القديم، لامست ذقنها  
بأصابعها، رحلت إلى الواجهة بصمتها، بتحديقها، إلى  
المقرنصات، الزخارف، الزوايا، الأغصان المجردة، أشارت إلى  
الآيات القرآنية المحفورة، المعلقة، المتعانقة فوق الواجهة..

«هذه ليست كتابة»

قالت بيقين:

ـ «إنها عبادة»

لم يعلق إنما أخذ عنها رؤيتها إلى الأشياء، وتعلم أن يرى  
الجمال المتفرد حيث لا يتوقعه إنسان، يثق أنها لو كانت  
بمفردها لتحديث إلى الجماد معبرة عن انطباعها. إذا كتبت  
ولم تصرح فإنها تدون.

هذا الدفتر الصغير الذى تمسك به أحياناً لتثبت ما تخشى  
فقدانه من ذاكرتها، ما يفلت، ما يصعب عليها حفظه، تكتب  
بيدها اليسرى، عندئذ ينشأ تكوين مغاير لكل ما يعرف. لكم  
استعادته متمهلاً، متمعناً، مرفقاً بالغوامض المستعصية على  
التفسير والتى لم تدركها عنه إلا هى. من تلك السطور،  
المفردات، الرموز، الإشارات، تصيغ ما تكتبه، ما تنشره عن  
أسفارها فى تلك المجلة التى لا يمكنه قراءة مضمونها لجهله  
بلغتها واستغلاقتها عليه.

قبل ساعات من مغادرتها القاهرة جثا أمامها، كانت  
منحنية إلى الأمام، تحديق منطلقة إلى داخله مباشرة. كان يبذل  
الجهد والمحاولة لتثبيت كافة ماسيفقده.

- «السفر موت أصغر..»

قالت هامسة:

- «لولا الإقلاع لما كان الوصول»

هز رأسه متأسياً شاكياً، مردداً:

- «الرحيل موت بالحياة».

ضغطت يديه.

- «لولا السفر لما التقيتكم..»

طالعها بملامح أسيانة مثقلة بمثلها عنده وملامحها التي تهمل عليه، محاولته التثبت بلحظات أنية مولية، يود لو أنشب نفسه فيها، أن ينقشها على ذاكرته، أن تتحول اللحظات إلى صخر يبقى ولا يفنى، يستعصى على الاندثار، على الفقد. لكم خشى لحظات أنية قد يبدأ عندها النسيان.

حاول أن يثبت عبيرها الخاص المنبعث من شعرها، من مسامها، من ثناياها، كينونتها، استسلمت لطقوسه الخاصة، حتى ملابسه احتضنها وقبلها.

«وما يمر بى يستعصى على لفظى.. لغتى لا تساعدنى».

يدكها الشجنى.

«لا معنى لأى لغة الآن».

تطوقه.

«تكلم بالعربية..»

يتداخل اللفظ باللفظ، يرتج عليه الأمر، فى ذروة اندماجهما، إيفال كل منهما عبر الآخر، لا تغيب عنه اللحظات التي سيقع فيها الافتراق. عندما تتحول النشوة المادية إلى صور للذاكرة، تردد:

.. «عش لحظتنا».

يقول:

.. «لكنها فانية.. مولية»

يطيل النظر إلى الصخور المتراكمة منذ الأزل، تكوينات  
غارية، يتصل الصخر الجهم وينفصل، يتضام ويتفرق، قباب  
مضغوطة، ملامح آدمية ناقصة ومكتملة تحد الأفق، داخلها  
ترقد المدينة القديمة.

لا يمكن رؤية ملامحها من هنا، لابد من عبور السيق،  
عندما سمع الاسم أول مرة، قال مصححا:

.. «الشق»

هن الموظف كثر الشارب رأسه.

.. «ماذا يعنى ذلك؟»

.. «لا أدري.. ولدنا لنجدهم يسمون الممر الصعب هكذا..»

سيمضى بصحبتها عبره. سيكتشف الأطلال القديمة  
معها. فى القاهرة كان ليلها. وفى مدينتها تقدمته عبر دروب  
يجعلها وقائته للوقوف أمام معالم لم يعرفها إلا فى الكتب  
والأفلام السينمائية، هنا.. سيكتشفان معا البترا، سيرى ما  
تراه لأول مرة. منذ سبعة شهور وأربعة أيام لم يتضاماً، لم  
يرها، لم يلتقيا، يخفق قلبه، ينتشى إذ يستعيد الإيقاع القديم،

ظن أنه ولى، لن يسترجعه مع تقدم العمر، زمن فتوته الأول،  
عندما كانت ظروفه أشق، أصعب، لكن إذ يمضى إلى لقاء  
محبوبة تعلق بها يشف ويخف حتى ليكاد يمشى على الماء.

أمامه وقت اليوم، لكنه لن يمضى إلى المدينة القديمة، لن  
يعبر السيق بمفرده، منذ افتراقهما أضيف إلى عمره مقدار،  
إلى عمرها، زمن اكتمل بمنأى عنه.

إلى كل بلد رحلت إليه خلت بنفسها وخطت سطورا إليه.  
من خلال كلماتها يرى ذاته من جديد، عندما أخبرته بمشروع  
قدومها إلى البتراء أبدى استعداد، أخبرها بإمكانية تدبير  
أمره، منذ ثلاثة شهور يتطلع إلى لحظة ظهورها المرتقب، إلى  
لقاءهما هنا، إلى أيام يقضيها بصحبتها تطيل أمله المقدس،  
تضيف إليه حتى مع نقصه، بحيوتها، بدهشتها البكر، بفيضها  
الأنثوى المرتقب. بمرحها المباشرة، بجوهر طفولتها الذى لم ينل  
منه الوقت!

هنا سيحقق معها ما رغبته، ما صرحت به، ما قابله وقتئذ  
بدهشة وخوف، الآن أصبح متهيئا للقبول.

في مدينتها، في ذلك المقهى الصباحى المطل على النهر  
الروض بنت صامطة. يعرف ملامحها عندما تنوى الإفضاء  
بأمر صعب، أو شئ تخجل منه، بقدر رغبته فى إطالة لحظات  
حياتها الأنثوى بقدر تعجله سماعها والإصغاء التام، لامست  
يده بأصابعها. قالت:

.. «تعرف أنتى لم أنجب من زوجى..»

أصغى.

.. «وتعرف أنتى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام سابلغ مرحلة

يصعب فيها ذلك..»

استعداد صحبته لأمه منذ حوالى ربع قرن، جلس فى  
مواجهتها عند الطبيب الذى بدأ يستفسر عن أعراض المرض،  
ثم سألها عن العادة الشهرية، فردت فى صوت خافت جدا:  
إنها منقطعة منذ عامين، يومها انتابته دهشة، إذ يقف على أمر  
خاص جدا يتعلق بأمه مصادفة: دخولها سن اليأس!

تسارعت دقات قلبه، ضغطت يده.

.. «أريد طفلا منك..»

يقترّب من النافذة، مبتعدا عن وسط الغرفة يميل مستندا  
إلى الحد المعدنى الداخلى، ملصقا وجهه بالزجاج المحكم،  
تماما كما فعلت عندما تطلعت إلى حديقة البيت المملوكى عبر  
المشربية. سور الفندق من حجر وردي، يبدو حمام السباحة  
ضيقا طارئا على المكان، يتجاوزه إلى الصخور الوعرة،  
ستحتويها بالبصر غدا، سيصبح لتلك التكوينات الهائلة بعدا  
مغايرا.

هذه التراكمات الصماء، تضج بحركة يصعب إدراكها،  
منتمية إلى أزل سحيق، أكثر مواضع الكوكب شيخوخة  
وحياة.

أين قرأ أن المكان زمن تجمد أما الوقت فمكان يسيل  
باستمرار؟ يتغير، ما هذه الصخور إلا قرون بلا حصر، طبقات  
عديدة من أزمنة يستحيل إدراكها، يتابع طيوراً دقيقة الحجم  
فجأة في الفراغ المتاح له رؤيته، ترتفع إلى علو شاهق، تغيب  
عنه يقين خفى أنها تبصره من مكان ما، خفى. أن ملامحها  
موزعة هنا وهناك، تتجاوز الأفق، حضورها الخفى الملازم،  
المستمر، المصاحب له منذ مفارقتها ما دلتها الحسوسة،  
ملاحها الماثلة.

عندما تجيء غدا يتصل وقتها القديم بلحظات قدمها،  
بأيامها هذا، أما ما يفصل، ما لم يقضيه معا فلا محل له ولا  
شأن، هكذا قدر!

ينثنى متأملاً الغرفة، هذا الفراغ سيحتويهما، ما موقعه  
بالنسبة للشمس؟ للمجرة؟ للكون؟ إلام سيستحيل بعد فناء  
المنظومة وتندري الكواكب في الفضاء السحيق؟

لكل وجود حد، حتى الزمن له انقضاء. فإين سترسو  
نراتهما المتبقية؟ وهل تتعرف واحدة إلى الأخرى؟ أين مصير  
الصبوات والحنين؟ إذا كان العدم سيطوي ما يلمس ويدرك  
بالحواس، فهل سيبقى ما يستحيل رصده أو التعلق به؟

غدا.. بمجرد توحدهما، يسعى كل منهما إلى الآخر، يلتئم  
شطرهما لحظة تواجهما، يخبرها بما استقر عليه، اقتناعه بما  
أبدته، لا يمكنه تخيل رد فعلها.

أخبرها ببعض مما عنده:

- «إنى هرم».

ابتسمت:

- «تفيض حيوية، لكنك تتعجل الكهولة».

لا يصرح بشعوره الأتَم، يقينه أن ما مضى أكثر مما يبقى. إن الحد النهائي ربما يكمن فى اللحظة التالية، إن سعيه سوف يبطل وما من أمل موجود بعده، أما نفاذه مع الواقع فممتازيد، سيقول إن رسوه عندها منج، يستمد من فوراتها جنوة وتوقدا.

على البعد يستحضرها فيحن، يهدأ إلى حين، إنما هى عنصر مصالحة، حتى فى بعدها واستحالة الظرف المواتى. يفتح حقييته، يرتب حاجاته. الملابس فى الصوان، كتبه وأوراقه فوق المنضدة المجاورة السرير.

كوب ماء يحرص دائما على وضعه قريبا. قالت إن حرصى على الماء يعنى حاجتى إلى الأمان، عندما زارت بلدا أفريقيا على حافة الصحراء الكبرى قدموا إليها الماء، علامة أمن وطمأنينة، ونزلوها من قلوبهم موقعا مكينا، ولطرد الأرواح الشريرة أثناء نومها.

قال إنه لا يعرف هذا كله، لكنه يستيقظ ليلا وجفاف حلقه

ممض.

تضم شفيتها، تغمض عينيها، يكتسب وجهها تفرداً وملاحة خاصة، قالت: أنت تؤكد ما أقول.

كيف يستقبلها غدا؟ لا يعرف موعد وصولها على وجه التحديد، هل يجلس إلى إحدى الأرائك الوثيرة المواجهة للمدخل؟ إذ يلمحها، يخرج غير عابئ بأى نظر، لن يقبلها، مجرد مصافحة، أما العناق فمؤجل إلى الانفراد.

لا.. بل قبلة سريعة ثم تخلل أصابعه لأصابعها، يصحبها إلى مكتب الاستقبال، غرفة مجاورة بقدر الإمكان، الفندق شبه خال، للتوقع لذة. وللاستعادة حسرة، أما اللقاء فمئقظ حتى فى أنيته، هذا ما تدركه عنه، لحظة دخولها مجالاً بصرياً يكسوه جمود ناطق، يرجئ متعة الانفراد، قال يوماً:

«لا أتكلم كثيراً، لكن .. عندي فيض غزير».

مسدت شعره، قالت:

«أحسك فلا تأس..»

يصغى إلى أزيز جهاز التكييف، يبتث دفئاً، تنبئ حدة الفراغ ومثول الصخور عن حدة البرد، تلك متعته القديمة، أن يرى المطر من خلف زجاج مقهى أو نافذة بيت.

رغم البرودة المتوقعة أغلق الجهاز، ضجيج الخفى يفسد عتاقة المكان، أنفاسه ستدفع الفراغ المحدود، غدا.. يستمد حرارته منها، يواجهان هذا الطلل الأبدى متعانقين، عارفين كما جاء إلى الحياة الدنيا.

فى المرة الأولى لم يفارقه خجله، فى العرى ضعف ما، ومن إنسانى لا يطيقه، أما هى فتحركت بطلاقة مفصحة، خرجت إلى صالة بيتها الصغيرة، متناثر فيها أوان معدنية وأخرى خزفية، تماثيل وأقنعة من جهات شتى حطت فيها أثناء ترحالها، قرب المدخل علقت إلى الجدار صفا طويلا من أوعية إعداد القهوة متدرجة الأحجام، مختلفة الأشكال. أنية موريتانية، أخرى من سيناء، ثلاثة من حضرموت، رابعة من مسينا الصقلية، خامسة روسية، تفضل القهوة على الطريقة التركية، تهيم بالبن المخلوط بالحبهان واعشاب غامضة، زيوت محفوظة فى قوارير من زجاج منمق. خلطة يتقنها رجل عجوز فى متجر لا يتسع إلا لجسده الضامر عند مدخل شارع المغريلين، رائحة البن القوية الفريدة تدل عليه من أماكن بعيدة. عند وصوله مدينتها استنشقت العبير من الحقيية، صفقت. تهللت. لكنه عندما رآها تبتلع ملء ملعقة بنا مطحونا. تسفه سفا. أبدى جزعا. قال إن هذا مضر جدا بالكلى.

«لآخر مرة!»

إشارة أصبعها الطفولية، كانت عارية إلا من أيامها ولحظاتها، سيضج جسدها الفاره هنا غدا، سيترك كل منهما أثرا لا يمكن رصده، ربما جاء يوما من يسعى فى أثر الذين كانوا، عندئذ يكتشف أمرهما الذى كان!

قالت:

«إن جسدهك جميل».

ثم قالت:

«ومتناسق...»

ثم تساءلت:

«لماذا تخجل؟»

قالت:

«حقاً.. إن جسدك متناسق، قوى»

دهش. سمع مثل ذلك يوماً ولكن في لغته من محبوبة انقطع عهده بها، يرد طيفها عليه في أوقات متباعدة، كأن ما اتصل، بينهما وظنه لن يبيد أبداً يخص كائناً غيره، كأنه لم يكن بينهما أمر، هل سيتذكر لحظاته تلك من نفس الموقع.. لكن قبل اكتمال تساؤله هذا، يجمع إلى خاطر يقضه: هل ينتظره مقدار يوازي ما انقضى على الزمن القديم؟ أكثر من ستة وعشرين سنة مرت منذ أن تقطعت الأواصر، وخمدت الجذوة، هل سيقطع عين المسافة في رحم الحياة؟ لو اكتمل ذلك، كيف سيرى لحظاته الآن.

هل يسخر عندئذ لإقدامه على السفر إلى بلد ينزله أول مرة، ثم يتجه مباشرة إلى الجنوب، إلى جبال الشوبك، إلى وادي موسى ليجاور البتراء؟

«أي خواطر تلك؟»

يردد قولها المتكرر:

«عش اللحظة».

يتمدد، يمكنه رؤية الصخور راقداء، كلما ولى البصر كأنه يراها أول مرة، لا يفارقه اليقين أنها تكمن فى موضع ما، عند تلك الانفراجات، هذه الشقوق. الممرات البادية والخفية، لا يعرف أسبابا مباشرة لخجله من اكتمال عريه، ربما لتحذيرات والدته المستمرة عندما كان صغيرا، أن يحذر خلع ملابسه أمام الآخرين. أن يغلق الباب جيدا إذا دخل دورة المياه فى المدرسة. أن يحذر الأكبر منه سنا. كانت تصرخ ولا تلمح، مع تقدم الزمن عرف أن هاجسها وقتئذ حماية مؤخرته، أو كما سمع والده يمدتها عن ابن أحد الجيران الذى استدرجه حارس الفرن الأفرنجى القريب وضحك عليه!

«فى العرى المكتمل إثم ما؟»

«ربما».

حدثها عن أيام المعتقل، خاصة فترات التحقيقات المتوالية، إذ تفتح الرنزانة فجأة، يقف الضابط أخضر العينين ممسكا عصا غليظة، يصدر أمرا بالتجرد تماما، فإذا صدر الامتناع جرى التنفيذ قسرا، لحظة خلع القطعة الأخيرة يقترب، يعمن النظر، ثم يشهر عصاه هاويا فوق الكينونة العزلاء كيفما اتفق، عندئذ يتم عصب العينين، لم يكن همه متجها صوب الضربة

المباغثة أو الحاجز الذى يمكن الاصطدام به أثناء الجرى صوب  
اللاجه بينما يستمر اصطدام العصى بالجسد المكشوف، إنما  
كان همه أن يستمر ما بين فخديه بيديه، يقول:  
«لا يتم اختيار ضباط التعذيب عبثاً».

يقول:

«كلما استعدت ذلك يتجدد غضبى»

يضم قبضة يده.

«كنت عفياً، قادراً على المقاومة».

تميل مقتربة منه، تبدى الإصغاء العميق حتى تتردد  
أنفاسها فوق مسام صدره.. يقول:

«كان اليقين مكتملاً بقدرتنا على تغيير العالم».

ثم يضحك ساخراً:

«لكن العالم غيرنا».

يلتفت إلى السرير المجاور، كأنه يتوقع رؤيتها، تضم  
ركبتها، تسند لحنها إليهما، وضع إصغائها الأمل، ومصدر  
طق شروره، انحدر صوبها بغثة. تهمس داعية غير ناهية..

«كن رقيقاً».

يستنفره الهمس، يتبدل للتو.

«إنى طوعك».

على مهل يعبر اللاجهة، الحد الفاصل بين اليقظة والنوم،  
سفر طويل، خروجه فجرا، إجراءات المغادرة، نظرات رجال  
الأمن المستريية، انتقاله مباشرة من عمان إلى وادي موسى،  
حرصه على إجابة تساؤلات السائق، يوضح القصد من  
وصوله لمن يفضى إليهم بما يسمعه، حذر قديم متأصل  
واستراية دائمة، هذا الرجل متوسط العمر، البدين قليلا،  
رأسه، قال:

«معك حق.. يجيء الأجانب من آخر الدنيا ونحن لا نعرف  
البتراء كما ينبغي!»

شاب يعرفه في المطعم شبه الخالي، لكنه لا ينكر ملامحه.  
ينتقل بين المناضد، ينظف أطباقا، يبذل الدوايق الفارغة بأخرى  
ممتلئة، يخدم زبائن لم يصلوا بعد.

حارس صعيدي، طويل القامة، يوصى بنزول السلم  
الحلزونى الحديدى الضيق بحذر، تتقدمه صوب المقبرة الواقعة  
على عمق مائة متر، عند المنعطفات الحادة تغيب عنه، يناديها،  
تتردد أصدااء نطقها، تفرد طبقاتها، يتلاشى الضوء، يطول  
ترقبه.

يناديها.

ما من إجابة أو صدى!

يصحو متلاحق الأنفاس، كم انقضى؟

العتمة مطبقة، الصخر اندمج بظلمة الليل، كم غسق توالى  
عليه منذ اكتماله؟ منذ استواء الهيئة؟، تدهمه وحدة، يتوق إلى  
التواجد فى جمع.. قوى، أين هى الآن؟

ترتب حاجاتها؟

تجلس بمفردها فى الزاوية التى اعتادا ارتيادها بالمقهى؟

هل يتصل بالمطار؟

. لكنه يخشى سماع إجابة محبطة. عبر المذيع قال رجل  
وقور الصوت. إن منخفضاً جويًا يتمركز الآن شرق قبرص،  
يتحرك باتجاه المنطقة، أما العواصف المتوقعة فمن المنتظر ألا  
تكون فى عنف السابقة، طالب المواطنين بالحذر، أكد استنفار  
الأجهزة المعنية لتوفير احتياجات المواطنين، بدأ يذكر الطرق  
السالكة، والمغلقة، والتى يصعب مرور المركبات الصغيرة بها،  
عندما قال إن حركة الطيران تعمل بشكل طبيعى، قام واقفاً.

هذا ما انتظروه، ما يعنيه الآن، ارتدى ملابسه بسرعة وكأنه  
تخلف عن موعد هام، فارق الغرفة، لا يدرى إلى أين؟

الليل ..

.. يواجه الفراغ الليلي البارد، الأضواء المتناثرة المتدرجة  
على سفح الجبل المرتفع، المظلم، المشرف.

خطاه فسيحة مسرعة، كأنه يحرص اللحاق بشيء ما، يريد بلوغ المنحنى بسرعة، يعرف أن عيني الحارس الواقف خلف الباب الزجاجي تتبععانه، يمعن مستكشفاً، ليس بحاجة إلى تثبيت علامات في ذاكرته، المباني قليلة، والفندق من علامات المنطقة.

أصوات فتیان ..

يلعبون الكرة، في نهاية لهوهم، قال موظف الاستقبال الذي بدا ودوداً إن الناحية آمنة، بعض الأجانب يفضلون دخول السيق ليلاً، يقضون ليلتهم في أعالي التلال الصخرية، داخل المغارات الأزلية، المسكونة. نعم.. عائلات تقيم بها. سكان المنطقة، اسمهم «البدول».

«من أين جاؤوا؟»

لم يجب بشكل قاطع، لكنه من غير المؤكد أنهم أحفاد الأنباط، لم يشأ إبداء دهشة السائح الغريب الذي يفتح فمه أو تجحظ عيناه إزاء كل مالا يعرفه لكنه أبدى تعجباً عندما سمع أنه الوحيد في الفندق الآن..

«الجميع سافروا قبل المغرب، يخافون إغلاق الطريق..»

سارع الموظف:

«لكن غدا سيصل فوج صغير».

«أعرف...»

تابع مجيباً استفسار الموظف الصامت:

«لى بينهم أصدقاء...»

ابتسم وكأنه أدرك عنه، وقال: إنه من المنتظر وصولهم  
حوالى الواحدة. سيجيئون من المطار مباشرة.

حتى الآن يمضى كل شىء على ما يرام إذا تعطلوا سيكون  
نلك بسبب الثلوج، لكن تأثير المنخفض الجوى لن يبدأ إلا بعد  
الظهر، منذ بداية الشتاء ثبت دقة التنبؤات، أشار إلى أعلى..

«كل شىء مرصود بالأقمار الصناعية».

قال إنه يوجد أجنبى فى المنطقة، يأوى بعضهم إلى فنادق  
صغيرة، أو يقيم بعضهم هناك، تحت، فى «المغرة».

قال زميله الذى اقترب ليتابع الحوار إن بعض الأجانب  
جئوا إلى البتراء ولم يفارقنها، تزوجوا وأنجبوا، يرتدين الآن  
الملابس البدوية، ويتحدثون العربية بلهجة البدول.

أول من تزوج أوربية دخيل الله، أمره شائع معروف، هامت  
به بنية سويسرية، جاءت إلى هنا فى العشرين من عمرها،  
دخلت السيق ولم تخرج منه إلا متزوجة به. كتبت إلى أسرتها  
تخبرهم بما لاقته، ما استقرت عليه، خلعت الجينز ولبست  
الجلباب البدوى، عاشت معه فى المغارة التى ورث الإقامة فيها

أبا عن جد. كانت تقف الى جواره فى المقهى الصغير ترتدى  
الخمار. تعد الشاي للزيائن الأغرأب، تباع زجاجات مليئة  
برمال ملونة يمكن كتابة اسم الراغب داخلها بطريقة يتقنها  
البدول، أنجبت طفلة جميلة واسعة العينين، كانت تجرى فى  
الوادی حتى سن السادسة. تحمل أوعية الماء. أو الطعام عند  
سعيها جوار أمها، هى الطفلة الوحيدة التى لا تهاب عند  
ظهوره..

«من ضبعان؟»

«حكاية تطول، لكن الكل ينتظر عوبته منذ غيابه فى مجاهل  
البتراء».

قال موظف الاستقبال:

مؤكد أنه فى غرفة فرعون..»

تسأل الموظف الآخر:

«هل رآه أحد بعينيه؟»

«لا.. ولكن يسمع أحيانا صوته»

«حكايات.. مجرد حكايات»

كان ضبعان يجرى من وادى موسى إلى البتراء، إذ يرى  
الطفلة ينس يده فى جيبه، يقدم إليها قطعة حلوى أو عقدا من  
خرز، بعد ذهابها حزن عليها ولام والدها.

راحت الطفلة مع أمها، من كان يتصور أن الحنين سيقوى  
ويستد بعد مضى سنوات؟ لكن هذا ما جرى للسويسرية، يبدو  
أنها تلقت ما يدعوها إلى السفر، إذ مرض والدها، هكذا قالت،  
المهم أنها صحبت معها دخيل الله. هناك أبدت عناية به وبذلت  
الهمة. عاشوا فى بيت من طابقين، تحيطه حديقة كبيرة بها  
جراج لسيارتين وأشجار تفاح وكمثرى وتوت وكريز وكل  
ماتشتهيه الانفس. والدها عنده مصنع لعلب الساعات  
السويسرية النادرة. لم تقصر مع زوجها، أى رغبة أبداها  
سعت لتحقيقها، عرضت عليه وظيفة فى مصنع أبيها ليمضى  
وقته. كانت تتق من نجاحه، إنه ذكى.

يتقن خمس لغات. نعم .. أى رجل من البندول يتكلم بثلاث  
أو أربع لغات، المفاجأة أن دخيل الله أبى، أظهر الكدر، ونال  
منه الغم، طلب منها العودة لكنها رفضت، أبدى المسائرة حتى  
فوجئ القوم برجوعه وحيدا.

أمضى عامين متصلين قبل سفره ليرى ابنته، لكنه لم يمكث  
أكثر من أسبوعين..

قال موظف الاستقبال بلهجة قاهرية:

«غيبى.. مش. وش نعمة»

أجابه مبتسما:

«يا عالم بالنفوس...»

يتوقف مجهدا مع صعود الطريق، تنأى أصوات الفتیان  
كأنها آتية من وديان سحيقة البعد، يتفرقون هنا تنتوع  
المستويات. السماء حادة الصفاء، مركز المدينة مازال بعيدا،  
لا بد أن يصعد حتى يصل إليه. الطريق خال تماما. يتوقف. ما  
من مقهى، عزلة تلف سائر الموجودات.

الجهة الأخرى يبدأ السيق. المدخل الطبيعي للمؤدى. لن  
يدخله إلا بصحبته، برفقتها، لو أنها بجواره الآن، ربما تقترح  
عليه المضى، لا تهاب الليل ولا الانهيارات المفاجئة أو الأخطار  
المتوهمة القادمة من عصور لا يعرفها، إنما يخمن ما دار فيها.

فى القاهرة أصرت على رؤية الأهرام فى منتصف الليل،  
وعند الفجر، لحظة الشروق، وعند الغروب، أمضت أوقاتا فى  
مواجهته تتطلع بلا نطق.

كيف سيرى انفعالها بالمكان هنا؟

لا يدري.

من مكان قريب ينبج كلب نباحا متصلا، توقف كأنه لم  
يكن، تفد عليه الآن من سائر الجهات، تقترحه كالفواية.  
يتوقف. يكف عن الخطو، يرقب الفندق غدا سيضمهما هذا  
المكان، فكأن الأنباط لم يستقروا هنا، ولم يشيدوا عاصمتهم  
الفريدة إلا ليتبقى منها ما يغرى بالمجىء والفرجة عليه وتفقدته،  
لينزلاها معا، يمضيا مقدارا من زمنهما معا. على مهل يخطو

عبر الممرات الممهدة، تمثل أمامه إشراقاتها الأولى، تتكرر اللقاءات، يقع الاتصاف، لكن اللحظات الأولى لا تفنى ولا تستحدث، فى زمن فتوته كان ينطلق بين صحبه.

يقص عليهم أدق التفاصيل، فى وحدته يستعيد مرارا، كأنه يحاول انشاء المتعة مرة أخرى، لكنه مع مرور الوقت أتقن الـكتمان، حتى صار ما عنده أكثر مما يلقاه خارجه. غير أن البدايات تظل ماثلة، يود لو يقيم لها نصبا من اللحظات.

### عبير الطلع..

.. بناء احتوى النهار كله، اختزل جوهر الصحراء التى امتدت يوما، والخلاء الأبدى، هذا صحن مسجد ومدرسة وخانقاه فرج بن برقوق، لم ير رسما له، لم تثبت فى ذهنه أوصاف المؤرخين الثقاة، لكنه يتخيله متوسط القامة، عريض الصدر، بشوش الوجه، مقبلا على الدنيا.

يقصد المكان عند الرغبة فى الإفلات من ضيق نزل به، أو سعيا إلى حنين غامض، يوما صحبه أبوه إلى مقبرة قريبة محفوفة بالريحان. كأنه يستنشقه للتو.

يعبر طريق صلاح سالم، يحاول تخيل المكان فى الزمن القديم عندما توحدت العمارة ولم يجاورها بناء ضخم آخر، مع صعوبة الانتقال واستيحاش الطريق وطوله بالنسبة لأهالى

القاهرة. كانت تلك المنشآت الصواري ترى من بعيد.

تحت شمس شتوية أليفة جلس مسندا ظهره الى قائم  
حجرى.. هل أغفى؟

ريما.

هل أغمض عينيه؟

مؤكد.

لكنه عندما أتجه بنظره لسبب خفى، كانت تقف فى مواجهة  
الإيوان الغربى.. كيف تمت وفادتها؟

متى ظهرت بوجودها المتمنطق بالحنين؟ لكن مجرد رؤيتها  
أثار عنده تحفزا، أحيانا يحرك ظهور أنثى مجهولة توقعا، أو  
حماسا، أو شجنا، ربما يضيف معنى تاما على حضور مدينة  
أو طريق.

وقفتها، استغراقها، ملامسة يديها لخصرها، لكم رأى  
أجانب هنا، مروا به ولم يتركوا أثرا، لماذا قصدها اهتمامه  
وتركيذه؟ لأنها بمفردها؟

لا يمكنه القطع.

لحظة رؤيتها تلك. هل كان ضبعان يسعى أم بدا اختفاؤه؟  
أين البتراء بالنسبة له؟ مجرد اسم قديم علق بذهنه يوما. أين  
الطريق إلى وادى موسى؟ والملاح التى طالعتها. والصخور؟

أين مكونات العاصفة الثلجية؟ مكونات ذراتها، عناصر هبوبها؟، ماذا عن تلك الأماكن المجهولة قبل ذلك عنده، يتعلق سمعه بها ويصره بالخرائط الموضحة لحالة الطقس.

انتقلت من تواجدها العابر في صحن الخانقاه إلى مركز وجوده، عرفها وهي في سفر، ارتبط الرحيل بسعيه صوبها، أحيانا نتصل به، تخبره أنها ستقلع عند منتصف الليل إلى المكسيك، إلى تايلاند، إلى بلد لم ولن يبلغه، يحزن، كأنه يودعها بالحضور مع أنه بعيد قصي، يتخيلها في الطريق إلى المطار، مرورها البوابات، يعيش كافة التفاصيل التي يصر على الاستفسار عنها، اسم شركة الطيران، موعد الإقلاع، زمن الرحلة، يقلب الخرائط المتاحة، يرسم دائرة خضراء على مدينة ستحل بها لساعات، يعاني من ابتعادها عن بعدها في كل الأحوال هي نائية، لكن انتقالها يضاعف وحشته.

بدا هذا كله عند تلك اللحظة. لو أنه أطل الإغفاء، لو أنه حاد ببصره، تناله خشية. عدم تمكنه رؤيتها في الزمن المولى، المنقضى، ألا تتصل أسبابه بها.

لم يتجه صوبها، إنما قصد الاتجاه القبلى مبتعدا، حتى لا يظن من يرقبه أنه يسعى إلى تحرش ما، أول خطوه نحوها مقترن بالحدز!

لم يلمح كائنا آخر، حتى الحراس الذين لا يكفون عن الذهاب والمجيء، غاب المترددون والمصلون، حتى من يلتمس

إغفاءة قصيرة، لم يفارقه هذا اليقين أن حركاته مرصودة،  
مراقبة من آخرين يجهلهم.

وقف أمام خلاوى الصوفية. ترى.. من أقام بها؟

أى تمتعات أو أدعية؟

أى شطح جرى؟

دائما يجهد الذهن والمخيلة لاستعادة ما اندثر، ما لحق  
بالعدم، بقدر ما جرى يضافى ذلك خصوصيته على الطابع، ألا  
تأخذ الجدران من ملامح ساكنيها؟

أقبلت ناحيته كالغواية، كالصبر، تعلق بعينيها الفسيحتين،  
أجابها:

.. «مدفن السلطان هناك فى القبة البحرية..»

منذ تلك اللحظة لزمها. قصدا الإيوان الشرقى. القبة  
القبليّة، البحرية، توقفا عند النقوش المطلة. والحشوات المشرفة  
والمقرنصات الصاعدة. تطلعا من شرفة المنذنة الشمالية إلى  
الأخرى الجنوبية. اجتازا عتبة الصوان الفرعونية..

.. «هذا شعار رمسيس الثانى».

أبدت تعجبا. بمفردها لم تكن ستلاحظ ذلك.

قال مزهوا إنه يعرف البناء حجرا. حجرا. خرجا معا. إلى  
القباب، الأضرحة، الواجهات الشاهقة، الحوارى الضيقة،

المقاهى الصغيرة. أشار إلى التراب. ذكر معنى بيت المعرى،  
خفف الوطء فإن هذه الأرض من أديم تلك الأجساد. حاول  
تقريب المعنى إلى اللغة الإنجليزية التى تتقنها تماما. بعد تناول  
الغداء أخرجت حافظة نقودها. خاطب الرجل طيب الملامح:

«يجوز أن تدفع السيدة حسابها يا عم أحمد؟»

مال رأسه مستنكرا، نافرا:

«لا يليق...»

اجتهد ليقدم إليها أقصى ما يمكن إبلاغه عنه ومنه،  
حضورها المشع ينفذ عبره، تتداخل أوقاتهما.

كان راغبا فى رؤيتها من كافة جهاتها فى نفس اللحظة،  
الإحاطة بها والنويان فيها. عند مدخل قبة قلاوون طلب منها  
التعمل. احتواهما الفراغ المؤطر بالنقوش، المنمنمات، الكلمات  
المقدسة.

قالت بصوتها الهمسى:

«تبدو وكأنك جزء من البناء...»

طالب من الحارس إطفاء المصابيح الكهربائية، الشاحبة،  
الفقيرة، حتى تسبح فى الضوء الطبيعى العابر للزجاج الملون،  
النوافذ الخضراء، الصفراء، الياقوتية، الأشعة المروضة،  
المرمية، كان الشمس تبدأ دورة الفلك من سمت المكان.

وحدث الظلال حضورهما، قرئت ما بينهما. بدأ عنده استنفار حسى حاول كبجه، حافظ على مسافة فاصلة حتى عند اقترابه منها وهبوب عبير شعرها وبدء تعرفه إليه، خاف الزل. ربما ظنت أن هدفه الأول والأخير لقاء عابر. كل ما يمت إليها استوفزه. لكنه كتم. هكذا.. تحفظ عند اقترابه، أو عبورهما الطريق واضطراره إلى ملامسة يدها أو كتفها لتحذيرها مع أنها لم تبد نفورا، تعمد تأخير خطوه ليرى عنقها، وكتفها المنحدرين فى دعوة سافرة، خطوها إذ تلمس الأرض بأطراف أصابعها، راقصة أبداً. دهشة دائمة كأنها ترى الموجودات لأول مرة مع أنها أطلعت على كثير وطافت الدنيا..

جرى اتصالهما الحسى الأول عبر الطريق الفاصل بين مسجد الرفاعى ومدرسة السلطان حسن، وعلى مرأى من مآذن مسجد محمد على المشرف المطل من عل. عندما أتجها صوب الشارع المنحدر بعد ساعات طوال أمضيها فى الشواهد الشواهد المشرفة على الميدان العتيق، كان مرهقا لكنه قادر على أن يتبعها إلى حيث شامت، نظرت إليه. كان إقدامها قويا، مقتحما حتى ليتوقع مثولها فى كل لحظة كما بدت. تخللت أصابعها يديه ليبدأ عنده مس لم يكف حتى الآن. يتجدد إذ يستعيده بالمخيلة. اتحدت أصابعهما حتى لم يعد قادرا على التمييز الحسى. لو شاء تحريك إبهامه أو خنصره لضلت الإشارة إليهما، تنقطع صلته بأطرافه وتتصل بها فى الوقت عينه.

توقف.

شمّلها بالنظر، فهمت عنه وأدركت، كاد خفقته أن يحدث فى المعمار القديم أصداً. طاف بها المدينة، قصد أماكن اعتادها، أحبها لترتبط عنده بها، فإذا أتاها وحيداً، منفرداً، استحضرها، يرى مالا يمكن لغيره مشاهدته، آثار مرورها يوماً، فكأنها ماثلة أبداً.

قالت إنها ترحل باستمرار، لا تمكث فى مدينتها إلا فترات قصيرة، فكان منزلها للعبور، وليس للإقامة.

ولدت فى الجنوب. قرية صغيرة قرب البحر. والدها فلاح قديم، أمها بولونية الأصل. تعرف إليها أثناء الحرب. لم ترهما منذ الصيف الماضى. كانت متزوجة. تعيش بمفردها الآن. مسكن صغير قرب النهر. حجرة وصالة فسيحة، مستطيلة، الجدران كلها مغطاة بأرفف الكتب. فى المساء تكون دائماً وحيدة. عندها أريكة مستطيلة. تجلس فى مواجهة التلفزيون. تشرب جرعات صغيرة من النبيذ. ربما يدركها النوم واذ تصحو تثقل عليها الوحدة.

تلتقى بزوجها السابق أحياناً. إنه حكواتى مشهور، يقص على المستمعين فى صالات المسارح القديمة، يظهر فى التلفزيون مرتين فى الشهر يحفظ ألف ليلة.

لا.. لم تنجب منه.

كأنه يصغى إلى صوتها الآن. يستعيد دائماً ندمها وحزنها

فى إجابتها، لم يمكنها عملها من أن تصبح أما، لكنها أعادت النظر منذ أن التقيا وتوحدا، العمر ينقضى أسرع مع اقتراب الأربعين..

قال إنه لم يتزوج لظروف شتى، مع دنوه من الخمسين يشعر أن ما تبقى أقل بكثير مما مضى، يوقن أنه لن يتجاوز الستين تساءلت:

– «أليكم هاجس الموت؟»

أوما. أجاب مفتتحاً أول قوله وإفضائه:

– «ألى حد يعينى»

أبدت تعجبا:

«أذن .. أمامك أحد عشر عاماً..»

تابعت:

– «هذه مدة كافية جداً..»

تساءل باقتضاب:

– «لأى شىء؟»

– «للتلجذ ما تبقى..»

يظن أنه ضاق بما قالت. كأنه صرح بهاجسه وانتظر منها الطمأنينة، لا أن تقر وتعتبر هذه السنوات كافية، اكتشف أن

حزنه ليس على قصر ما تبقى، إنما لاستحالة عيشه أبداً، رغبة  
ألا يفنى، ألا يتدري ببدء، ألا يهن، أن يفعل غداً ما قدر عليه  
أمس، كيف تريد منه الاقتناع بتلك السنوات إلاحدى عشرة؟  
لكن هل يسعى إلى يقين عندها لا يستقر داخله؟

قال إنه في موقع الأخ الأكبر، انتظر حتى انتهاء أشقائه  
الأربعة من مراحل تعليمهم، كان مسئولاً عنهم بعد رحيل أبيه  
المبكر، المباغت، كل منهم تزوج إلا هو.

تطلعت صوبه مباشرة:

«أهى الظروف أو رغبتك فى الانفراد؟»

عيناهما الفسيحتان، الجميلتان، ذاتا الأغوار، إذ تتطلعان  
إليه لا يقدر على التورية، أو التخفى، تنفذ إليه بلا مانع يردى..

### عودة

ثمة شئ لا يعرفه فى تلك الصخور يسمع ويرى.

قعد على حافة الفراش. مشدود البصر إلى التكوينات  
الغامضة، سماء دانية، قصية خالية من الغيوم، تحوم حوله  
بهجة مستعصية، ستصل اليوم. يلتفت إلى الفراش الآخر.

«صباح الخير.. كلودين»

لا.. لا تلفظ اسمها هكذا، كرره مرات، محاولاً محاكاة  
لفظها، فيها تعبير عن مفاجأة، ودهشة، وتساؤل، وإفضاء

بسر. تنطق فكأنها تهمس، تتعجب به وله، أهي المقصودة؟  
يميل جسدها إلى الأمام. مع مخارج حروفها تسفر عن دعوة  
محدثها، تغويه بالقرب وتنفي أى خاطر بوقوع  
الاستحالة تنقسم إذ تصفى إلى محاولاته سماع نطقها. تشف  
ملامحها عن وجود غير منظور.

ما بين وقوع عينيه عليها أول مرة، وسفرها من القاهرة  
سبعة أيام. وما بين سفرها ورحيله إلى مدينته تسعة شهور،  
وما بين وصوله وانفراده بها وأتحدهما خمس ساعات. لم  
يتحقق ذلك الايام السبعة الاولى.

أقامت عند صاحبة تعمل مهندسة فى مشروع مترو  
الأنفاق. حدثته عنها. لم يلتق بها، أحيانا يتلقى رسائلها عليها  
طوايع يريد مصرية وأختام قاهرية، يستنتج أنها بعثت بها إلى  
صاحبته مع مسافر أو مسافرة.

مساء كل يوم يكتب لها. يجلس ليخاطبها على الورق. يقص  
عليها ماجرى له. ما مر به. أطلعته على صندوق مغربى لونه  
بندى غامق، خشبه معتق. كافة ما كتبه إليها. صورهما معا.  
تأمل الأوراق. المظاريف. أختام البريد، كأنه يتعرف إلى كلماته  
من جديد، يكشف ما لم يطرأ عليه لحظات الكتابة، كأنه يتعرف  
الى كلماته من جديد.

بعد وصوله كان متعبا، متهيبا. إنها المرة الاولى التى ينزل  
فيها ضيفا على أنثى. وفى بلد غريب. تمنى الا يسبب إزعاجا

ما. تحرك بحذر. أبدى تكلفا. وأسفرت عن بساطة، لم يعتد الرفقة.

قدمت إليه حاجاتها. مكتبها الصغير، القلم المغموس فى الدواة، المرايا المؤطرة بزخارف مغربية، هذا العدد الكبير من أوعية القهوة، اللوحات الصغيرة، منها البرتغالية المرسومة على الفلن، المكسيكية على لحاء الشجر، مشاهد مرشحة لطبيعة صينية على حديد، ألواح مستطيلة أو مستديرة من نحاس، زربية من جبال الأطلس الكبير تغطى الصالة، مجلدات بلغات شتى متجاورة، تتقدمها فوق الأرفف تماثيل دقيقة.

أمسك نرجيلة صغيرة من فضة. هديته الأولى لها. لوح بها. بادلته الابتسام. كل منهما يكتشف الذى لا يعرفه من الآخر بعد بدء الانفراد.

النافذة بامتداد الجدار، عريضة كتلك المطلة على الصخور. شقتها فى الطابق الثانى والعشرين. فى الأفق البرج الشهير، وعند قمة المرتفع قباب الكنيسة الشهيرة التى يقصدها السياح. قال:

«أفضل الأفق المفتوح..»

أومات موافقة، أشارت بإسطة يدها..

«هذا أول ما أرى صباح كل يوم..»

لم يكف عن الاستفسار، أى مقهى تفضل ؟ أى الأماكن

تذهب فى المساء؟ أى أصحاب يزورونها هنا؟ أشار إلى الكتاب المفتوح فوق المنضدة المجاورة للسرير.

«على الأقل ساعة قبل النوم، أما الصحف فبعد الغداء...»

قالت إنها تمضى أياما عدة بمفردها. فى أيام الأجازات تفضل الفرجة على التليفزيون بدلا من الخروج إلى الشوارع الرمادية الموحشة، الفارغة إلا من دوامات الرياح وأوراق الشجر المتساقط والضياء.

تدقق منه حنو تجاهها، حاول مساعدتها أثناء إعدادها طعام العشاء لكنها طلبت منه أن يقعد. منذ صباح الغد يمكنه أن يفعل ما يشاء. أطلعته على محتويات الثلاجة، غلب الشاي والقهوة ومكان السكر. والنعناع المحفوظ فى أكياس صغيرة. أحضرته من أجله لأنه قال مرة إنه يحبه ويفضله.

عند العاشرة ليلا توقف أمام النافذة. تطلع إلى أضواء المدينة، مستدعيا القاهرة النائية والتي تفيض حيوية، خاصة فى أماكن نشأته ودراسته وعمله.

الأحياء القديمة، فى أى ساعة من الليل يمكنه أن ينزل إلى الطريق فيجد من يتحدث إليه، ويعود بما يرغب شراؤه، هذه المسافة من سوق السروجيين حتى باب زويلة، صعودا إلى باب الوزير. شريان يدفق دما وضوءا وإنسانية!

لم يبدأ ليلته الأولى بعد، وبدأ حنينه للمضى، بل إن الفقد يتحرك الوعى به دائما فى البداية. قبل الانغماس فيما ينتظره،

حاول إخفاء كمد عابر كاد يمسك به. استشعر حركتها بدون رؤيتها، ضجيج حضورها وفورانه.

التفت..

متهيئة.. سافرة.

ما من أجمل وأرق وأكثر سحراً وغموضاً من امرأة راغبة. ساعية، قميص شفاف، قصير، يفصح عن تخومها المذهلة. أما صدرها النافر فأحدث زحزحة داخله، نهدان طليقان، مقيدان، مشهران، ملمحان إلى أكرية الكون والوقت. أما كتفاها فازداد انحناءهما، كانا ملساوين، مكتملين، غائبين وموجودين.

يستدعي لحظات مماثلة، محبوبة عرفها يوماً على سفر أيضاً، أوريثها فقدتها حسرات، في كل خلوة تصر على ارتداء ما يروق له، تبذل قمصانها. أربية النوم، حتى تلمح لمعة عينيه، تستقر وترضى.

لم تتعمد بداية عرض، إنما كانت في تغير مستمر، كل لحظة تبدى جديداً لم يعهده منها. راحت وجاءت. لم تظهر تكلفاً أو خجلاً. أفسحت لثيابه موضعاً في الصوان، حاول منع عينيه من تعقب ربقيها، خاصة عند انحنائها. كان الزجاج شفافاً، وأصداء المدينة تصلهما، لم يشد الستائر، سيشهد الكون ليلتهما!

لحظة خروجها من غرفة النوم ممسكة علبة نواء صغيرة. اندلعت كوامنه فجأة. كأنه انتبه إلى خلوتها، إلى تالفها

الحسى، لأول مرة. فارقته الرهبة التى اعتادها قبل الاتصال الأول. تبدد خوفه من الفشل، لكن دقائق قلبه هرعت تقتفى بعضها، عندما حاذته، لأمس معصمها، أحاطه، التفتت، هل بوسعه نسيان ابتسامتها تلك؟، مستحيل، ربما يغمض عينيه إلى الأبد وآخر ما يصحبه معه قوس قزحها.

أقدمت صوبه. أحاطت عنقه. شبت على أطراف أصابعها بميل نحوه فحل صدرها ضيفا عليه. لأمس نداوتها عند نقطة مصير الخصر الى بداية تقبب الردفين. سرى جسدها عبر مسامه إلى ركنه المقيم. بعبيره. بإقباله وإنباره. بتأججه. بمفارقه ونواصيه، تبدد كل اتزان عنده بعد تسليمها مفاتيح مدينة روحها إليه، أما زفراتها الحرى فأججت قواه التى ظن تلاشيها، سرحات يديها تبعث القشعريرة بتذكرها فما البال عند حضورها؟ أما نفسها وجهها فى صدره فجعل مبررا جديدا لاستمراره حيا يسعى.

صار فى خلق جديد.

أضيف إلى زمنه مقدار لم يعد له العدة. كانت منقلبة. نائية عن أى اعتبار، ساعية إلى أرضائه والحنو عليه، بأدائها دفقا بدفق فاسترد حريته الأولى.

لا يستعيد البداية إلا بتأجج حضوره. يصعب عليه الهجوع، قام واقفا. أشعة الشمس تتخلل الصخور التى بدأ طلوعها مختلفا. كما احتضنها فى مواجهة مدينتها سيضمها هنا متحديا كافة القوى والأزمنة التى عبرت هذه الأكم.

كان جسده مشهورا رغبته فى مواجهة المدينة المتوارية وكأنه  
يعلن قصده: افتضااضها.

نادى بصوت خافت، أينما حلت الآن تصفى إليه، سيقص  
عليها نبأ تلك الليلة، أمضاها بمفرده فى الفندق، ما من نزيل  
غيره.

عندما وقف أول صباح يحلق ذقنه أمام مرآتها التى تغطي  
الجدار، وقفت لصيظات عند الباب الموارب. تقبلمت. أسندت  
وجنتها إلى ظهره، أحاطته، طلبت منه أن يستمر. فارقه أى  
حرج، يتحرك فى البيت وكأنه مقيم منذ وقت طويل، صار  
مرحاً، خفيف الخطو، أجراً بعد أن توالجأ، بعد اتحادهما به،  
طلب أن تقف كما جاءت إلى الدنيا.

بدت نصبا حيا، دافقا للأنوثة.

كان راغبا فى تثبيت كافة ما يمت إليها عنده. بدأ بتقبيل  
شعرها وتمريغ أنفه فى خصله. طرق كوامنها. وعندما انحنى  
متأملا تناسق قدميها. لم تطق. انحنى، تتخلل شعره، تردد  
اسمه بتأثر، بحنو، بأزلية أمومية، حريصة على احتوائه  
وأختزال مداريها، فكأنها تريد إعادته إلى رحمها المكنون عند  
اتحادهما.

## المخارات..

هى الآن فى نفس البلد.

وصل الفوج. لم يغلق المطار رغم اشتداد العواصف. هل يعوقها انقطاع الطرق؟ لم تفتحه نشرة أخبار واحدة. يعرف مصطلحات المرور الآن. هذه سالكة وتلك مغلقة وأخرى يلزم الحذر لاجتيازها.

قبل مغادرته الحجرة للمرة الثالثة خلال ساعتين التفت إلى المقعد المواجه للمرأة.

«لماذا اخترت هذه التوقيت».

تبسط راحتها. تمط شفتيها. تتخذ ملامحها أوضاعا مغايرة تستمددا من طفولة كامنة، غارية..

«ترتيب يتعلق بعملى.. لا يد لى فيه».

ينبعث صوتها منه. تتردد لوانمها داخله. تراوغه على البعد إذ يرغب فى الإصغاء إلى نطقها اسمها. عند جلوسه منفردا. يخلطه بعناية. مرة بالعربية، يعيد رسمه، بالنسخ، بالثلث، بالخط الديوانى أو المستعليق، ثم يكتبه باللاتينية. كل حرف يورد زهورا، وأغصانا.

لكن.. هل يثق من وصولها؟

ربما جرى ما أعاقها. لا يمكن الاستدلال على اسم معين بين أفراد الفوج، يقتضى ذلك اتصالات عديدة، المؤكد أنهم نزلوا أحد فنادق عمان. ينتظرون تحسن الطقس. الطرق فى العاصمة ذاتها صعبة. بعضها مغلق.

حرص على أن يبدو هادئا. وإن أدرك كل من فى الفندق أنه ينتظر عزيزا عليه، وأنها أنثى، حقا.. وأى أنثى؟ أى حنو يسعى؟ وأى تتويج للحقيقة؟

تكرر خروجه إلى الشوارع المحيطة، لكنه لم يقرب السيق.. لن يسعى إلى المدينة القديمة إلا بصحبته. اعتاد تناول الشاي فى مطعم الاستراحة الحكومية. إطالة النظر إلى المرتفعات المحيطة، الحديث إلى القوم، بدا مدير الاستراحة حزينا، غائبا عن المثل بدرجة ما، قال إن عددا من المصريين يعملون فى المدينة. أحدهم نجا من التجمد بأعجوبة. كان قادما من مكة. نزل فى منطقة «أذرح» تبعد حوالى عشرين كيلو مترا، بدأ المشى قاصدا وادى موسى والرياح باردة تقص الوجود قصا. خاض العاصفة، استمر، تقدم، تعثر، لم ير الثلج فى حياته ومع ذلك عرف كيف يقاومه. لم يكن يرتدى إلا معطفا وجلبابا وسراويل طويلة. بيده حقيبة لم يفارقها. قال إنه من الصعيد، ويعمل مزارعا بحديقة فاكهة.

قال المدير سريع اللهجة، مقتضب العبارة إنه عاش فى النمسا اثنتين وعشرين سنة، فى بلدة قرب الحدود الألمانية..

«عندى هناك طفلان..»

لماذا عاد؟

لماذا فارق زوجته وطفليه؟.

لم يفصح عن فضوله. اكتفى بمتابعة المدير الذى يتكلم. يتكلم بسرعة ثم يكف فجأة، سارحا بعينه إلى ما يصعب إدراكه. يجرى البعض ويمكنون مددا متفاوتة، ثم ينصرفون بعد إحكام الغطاء أحمر اللون حول الرؤوس والأعناق. عندما رآه فى الصور ظنه مجرد زينة.

موظف بمحطة الكهرباء يسكن أعالي البلدة. طباح كثيف الشارب، سائق من الخليل أضطر إلى الإقامة لانقطاع الطريق. استفسر منه عن الثلوج وتراكمها، عن الأفواج، عن المناخ المتقلب، العنيف هذا العام، هل له علاقة بحرب الخليج وحرائق الكويت؟

«بالتأكيد حدث تغير..»

تابع المناقشة صامتا. من أخطأ؟ العراق أو الكويت؟ قال أحدهم إن الحسابات لم تكن دقيقة.

قال آخر إن ملايين تشردوا، قال ثالث إن الصواريخ التى أطلقت عمل لا يمكن تجاهله. النفطيون كفوا عن المجيء لقضاء الأجازات، شربهم الويسكى، الخمور، أحدهم دهس طفلا عند الطريق المؤدى إلى قلعة الشوبك، عندما جاء والده أخرج مبلغا

كبيراً من المال. لكن الأب وقف صامتا. ذاهلا. ثم أخرج  
غدارته، أفرغها في رأس القاتل!

العاطلون. اللاجئون. الفارون. الخيول المنتظرة قدوم السياح  
في الفراغ أدخلوها الحظائر، حرام ترك الحيوانات في الخلاء.  
ليس من المنتظر قدوم إنسان هذه الليلة أو صباح الغد، في  
نشرة السادسة يعلنون ما سيكون عليه الحال غدا. لكن هناك  
أجانب في البتراء. يمضون الليل هناك.

«هل هذا طبيعي؟»

قال أحمد المتخصص في آثار المنطقة إن ذلك يحدث كثيرا.  
وإن بعضهم يفضل الإقامة في المغر على الفنادق.

«أى مغر؟»

المغارات... في الخارج لا يكف الثلج، بدا الأثرى متعبا، يلف  
رأسه بغطاء مماثل، ملامحه قوية، بارز الأسنان، قدر أنه تجاوز  
الثلاثين، وأنهما من الممكن أن يصبحا أصدقاء، قال السائق  
من المحتمل مجيء بعض الجواسيس.

قال المدير إن هذا ممكن.

قال الأثرى الشاب أن البدول يعودون الآن إلى مغاراتهم،  
لكل أسرة كهف في الجبل، بعضه فسيح مريح، اعتادوا العيش  
هناك، الحكومة أرادت أن تخلق المواقع منهم لحماية الآثار،  
شيدت لهم بيوتا مريحة، فيها الكهرباء والماء على مقربة، لكنهم

أثاروا مشاكل عديدة، والآن بدأوا يعودون، معظمهم ولد في الكهوف، اعتادوها، ومنهم من يريد البقاء قرب المكان الذي اختفى فيه ضبعان.

قال إن مثل ذلك جرى في الأقصر منذ حوالى نصف قرن عندما بنى المهندس فتحي قرية القرنة، صارت مزاراً، لكن الأهالى رفضوا الإقامة فى بيوتها، عادوا إلى منازلهم القديمة.

قال إنه قرأ عن تجربة حسن فتحي، وأن ثمة تشابهاً قوياً. كان الحوار حول البتراء والقرنة بداية تعارف كل منهما بالآخر، وفى المساء أطلعه على انتظاره وقلقه، بل سبب مجيئه، أبدى دهشة لأنه لم ير المدينة القديمة.

«كم تبقى لك هنا؟»

«أربعة أيام»

«لاتخسر يوماً واحداً، امض الى المدينة، وعندما تجيء صاحبك ستطلعها على ماتعرفه.. أنت دليلها.

«المهم أن تصل..»

تطلع الى السماء. قال إن الثلوج ستنزل بكثافة يعرف تلك الغيوم جيداً. ما من شيء مؤكد ما دامت العاصفة مستمرة.

## فى السيئ..

لابد أن حارس الباب، وموظف الأمن، ومن يرقبه خفية من حيث لا يدري اعتادوا خروجه اليومى، خطاه السريعة كأنه سيلحق بموعد هام تأخر عنه.

يعرفونه الآن. بل أخبره الأثرى أن بعضهم أشار إلى الفندق أمس من المرتفع:

لا يوجد به إلا المصرى..

ما من مفر. يوم واحد ويشرع فى الرحيل، مجرد فتح الطريق، أى يوم يتجاوز مدته المقررة يعرضه للخرج، اقتنع صباح اليوم بما قاله صاحبه، أن يلقي نظرة، المدينة تستحق، وإذا كان اللقاء لم يتم، فليقص عليها ما جرى، ليصف لها وقته المعزول.

«يمكنك أن تبدأ بعد الإفطار وسألق بك عند الظهيرة..»

طلب منه أن ينتظره عند المسرح الرومانى، سيصحبه إلى أعلى الدير، ولكن يجب ألا يضيع وقتا، ظروف نادرة يرى فيها البتراء.

يميل الطريق منحدرًا، حصى صغير مختلط بالرمال. شظايا أحجار. مداخل الكهوف الممهدة. الصخور المستقيمة الجوانب، خزائن الجن، قبر السلالات. الواجهات مطموسة

العالم. بقايا قنوات المياه القديمة. تابعه الحارس دهشا من داخل الحجرة ذات الجدران من الصفيح المضلع.

يلتفت إلى الوراء. نصحه صاحبه أن يمضي مع السيق. ألا يحيد، ألا يتسلق صخرا مهما بدا درج أو طريق ممهد.

يلتفت إلى الوراء.

لا أحد.

لماذا يشعر أن هناك من يرقبه. يتابعه. صمت جليدى. حتى الرياح كفت تماما. كأنه فى بداية الخليقة. لضيقه خلال أيام انتظارها عجز عن استدعائها. خلال اليومين اللذين أعقبا وصوله لم يكف عن تخيل انفعالاتها، اقتراحاتها المفاجئة الممكنة.

لكن مع انقطاع الطرق، وغموض موقف وصولها إلى عمان، ورنين الهاتف فى بيئها بدون إجابة، دفعه هذا إلى كمد لم يخفف منه إلا صحبته أحمد الاثرى وإن لم ينقطع رجاؤه من مثولها أمامه فجأة، لكم تطلع إلى الهاتف الهامد. ود لو أن رنيننا أشعل توقعه. حتى وإن خاب، لكن من سيتصل هنا به؟

ليس بحاجة إلى مراجعة الكتيب الصغير. أمده صاحبه بالكثير. كذلك موظفو الفندق الذين أبدوا اهتماما به. ليس النزيل الوحيد؟

أكد المدير أن التعليمات تقضى باستمرار العمل، اخضاعة

كاملة، وموسيقى مستمرة. ومطاعم متأهبة، نظافة فى  
مواعيدها، حتى وإن لم يكن هناك نزيل واحد.

لابد أن وجوده يمنح الجميع سببا لبقائهم ومداومتهم  
أعمالهم، بمجرد ظهوره يتسابقون إليه. يسألونه عما إذا كان  
فى حاجة إلى شىء ما؟

فى اليوم الرابع كانوا مطلعين على مكنونه، كلمة من هنا  
وكلمة من هناك ألما بدوافع قدومه، خاصة موظف الاستقبال  
الشاب الذى استقبله فى اليوم الأول. أبدى تعاطفا، وحكى  
بعضا مما عنده..

. يتوقف لحظات فوق جسر حديث، أقيم فوق موضع آخر  
قديم، يحمى السيق من تدفق السيول، بعد أن جرفت المياه  
ثلاثة عشر، فرنسا..

«لا.. كان ذلك قبل الجسر. الآن يمكنك دخول السيق فى  
أمان.. لكن مع التزام الحذرا»

مع كل خطوة يعمق الصمت، سكون أزلى قائم من عصور  
سحيقة، عند المدخل الطبيعى، بداية السيق، إلى اليمين مقاعد  
متناثرة ومنضدتان، لافتة تعلن عن شاي وقهوة ومثلجات.  
لكن.. لا أحد.

لو أنها إلى جواره الآن!

هذا مقهى يقصده العائدون وليس الذاهبون إلى البتراء.

يدعوها إلى الجلوس لحظات.

«طبعاً.. لا يمكن المرور أمام مقهى إلا وتجلس إليه حتى لو كان مجرد لافتة».

صباحهما الأول. أول شمس تشرق على توحيدهما أزاح الباب المتحرك، أصبحت غرفة النوم والصالة المكونة مساحة واحدة تنتهى بالنافذة التى تحتل عرض الجدار. أزاح الستائر تماماً. أطل على المدينة، ضباب كثيف يغطى قمم البيوت.

«لم يكتمل النهار بعد... كأنه الفجر»

قالت:

«هل تعلم أن أعتم لحظات الليل تلك التى تسبق الفجر؟»

ليته يستعيد حوارهما معاً، أو كلماتها أثناء حركتها فى الحيز، ضمها إليه. قال إن مثل هذه اللحظات يسميها العروسان فى مصر «الصباحية»

تردد:

«الـ .. الصباحية..»

محاولتها نطق الصاد والحاء تثير مرحة، يقبل شفقتها، تتألق عيناها بحيوية. داخله يدفق نشاطاً لم يعهده. أكثر من أربع وعشرين ساعة بدون نوم، عندما اندلع تأججها خشى الحينة. لكن ما بدا منها أثار زهوه. ربهها البادى ورضاؤها حتى أنه سعى مرة أخرى يستعيد تعلقها به وتكوكبه بمدارها،

وقبض جسدها لجسده، إحاطتها به وتدرجها كأصابع عازف  
ماهر أثناء انتقالها على درجات الناي الخشبي

لم يكن يحتضنها إنما يتعلق بها. لم يكن يدفع بنفسه إنما  
يتلمس أسباب الحياة، وعندما أغفى بجوارها لم تدهمه تلك  
الهواجم إذ يبدأ انتقاله من اليقظة إلى النعاس.

ما أشد الشسوع بين استعادته لما كان بينهما عند وصوله،  
طوال اليوم الأول وحتى الثاني، وبين انبعاث هذه اللحظات الآن  
وقد دنا وقته من الانقضاء، وصار وصولها أملاً عسر التحقق.  
في البداية كان يتقد متحفزاً متوقفاً لما سيكون، أما الآن فكانه  
يرثى ما كان.

يستدير ملتفتاً، لقد أوغل، منحني لم يشعر به حجب عنه  
مقاعد المقهى الخاوي. الأرض تزداد خشونة. في الصخور  
نوافذ محفورة لا تطل على شيء. لا تؤدي إلا صوب نفسها. من  
صخر إلى صخر أصم يتبدل النظر. ما يشبه وجوها آدمية.  
مجرد خطوط أفواها مزمومة، رموزاً، إشارات إلى ملوك  
عبروا. لم يتبق منهم إلا تلك الإشارات المستعصية..

تقول وهي تدنو منه:

«عش زمك»

يجيبها مجادلاً:

«ما من حاضر»

تشير إليه بأصبع اكتسبت حدة تميز إشاراتهِ .

«أنت تعيش في الماضي»

يبتسم هائلاً .

«وحتى هذا لا يمكن إدراكه..»

يكاد يصغى إلى لفظها في هذا الصمت المقبوء، ترتفع  
الصخور على الجانبين عبر تكوينات متتابعة. تبدو السماء  
بعيدة. يوغل الآن وحيداً. لا يعرف مكانها الآن؟. هل تقع  
المفاجأة فيجدها عند عودته إلى الفندق؟

هل تظهر أمامه فجأة عند أحد المنحنيات، أو يلتفت فيراها  
ساعية إليه؟ وصلت بعد فتح الطريق، بمجرد علمها ذهابه إلى  
السيق سارعت اللحاق به.

حدثه أحمد الأثري، فقال إنه عرف العييدات من زائرات  
البتراء، كل منهن تنتمي إلى جنسية، لكنه لن ينسى أبداً بنية  
ماليزية، تعمل مضيضة في شركة آسيوية، جاءت مع زملائها  
أول مرة، كانوا تسعة.. ثلاثة ذكور وست إناث. صاحبهم سبع  
ساعات، المدة المتاحة لهم، لكنه أيقن أن كلا منهما للآخر.

قال أحمد عن جده الغائب ضيعة إن مسار العلاقة بين  
الرجل والمرأة يتقرر منذ اللحظة الأولى. وأنه عند تطلعه إلى  
الوجوه يتأمل وعند ملامح بعينها يرسو ويبدأ.

منذ خمسين سنة جاءت امرأة إنجليزية ترتدى قبعة عريضة  
وقفازاً أبيض، أما زوجها فيمسك عصاً قصيرة. كان طويلاً.

فارها، يتحرك على مهل. جاء فى زمن لم يكن قادرا على الوصول الى البتراء إلا الاثرياء. أصحاب المراكب العابرة للمسافات، والذين اعتادوا إنفاق جنيهاات جورج الخامس الذهبية. كما تنفق الفلوس المعدنية الآن. منذ تلاقى نظراتهما فهم ضبعان.

لم تمكث مع زوجها إلا ليلة واحدة. أمضياها فى خيمة أحضرهما معا. لمدة عشر سنوات كان يتلقى منها بطاقات من شتى أنحاء العالم. حتى أيقظوه يوما فى الخامسة صباحا، وعندما قالوا له إن امرأة أجنبية، قصيرة، ترتدى قبعة عريضة، تريده فى الخارج، قام متمهلا، غسل وجهه، وغير ريقه بكوب ملئ بزيوت الزيتون المذاب فيه صفار عشر بيضات نيئة، ثم خرج راسخا، كان يثق أنها أنت. لهذا لم تبد عليه أى دهشة، التفت إليها، أو ما مرحبا. لم يضع يده فى يدها. مشى متمهلا وهى تحاول جاهدة اللحاق به، عيناها لم تفارقه، كانت مشتاقة، وما من شئ فى الدنيا يفوق ملامح امرأة راغبة. نزلا من وادى موسى إلى السيق إلى خزنة فرعون. اتجه إلى اليمين، قبل أن يرتقى الدرج العتيق الصاعد توقف. لم يلتفت. لحقت به. حملها كطفل، اختفيا لمدة أسبوعين لم يسمع إنسان عنهما أى خبر.

ضبعان كان عالما بدروب الجبل، صخوره، مرتفعاته الصخرية، كافة المسارب الخفية، أما حجرة فرعون المعلقة فلا يمكن لخلق الوصول إليها عداه هو، مرات ثلاث شاهده

القوم، مطلا منها، يثق الجميع أنه يعرف مواضع كنوز البتراء من فضة وذهب وحلى لا مثيل لها، وأوان فخارية نادرة، لا تقدر بثمن لندرته وقيمتها، يؤكدون أن ما يظهر من المدينة القديمة مجرد شيء ضئيل جداً. وأن ما يخفى من معابد وشوارع وساحات كثيرة.

قال أحمد إن جده أفضى إليه ببعض من مسارب البتراء وطرقاتها الخفية عبر الجبل. الدروب التي يسلكها الآن عرفها منه، أما ما درسه لسنوات عديدة في كلية الآثار وفي أمريكا خلال بعثته هناك. فقطرة من بحر. وبعض من فيض ضبعان.

لا يعرف إنسان أين غاب مع الإنجليزية، كيف أمضيا مدتهما؟ كيف وفرا طعامهما وزائهما. خاصة أنه اشتهر بنهما وقدرته حتى سمي بضبعان وغطى لقبه على اسمه الحقيقي. كان يفطر بثلاثين بيضة مضروبة في السمن الذي تفوح رائحته من بعيد. وخمسة لترات من اللبن، ثلاثة طازجة واثنان حامض، وسبعة أرغفة. وحمل برقوق أو كمثرى أو برتقال. فاكهة مقطوفة للتو. لو مضى عليها ثلاث ساعات لا يقربها. زيت الزيتون يعبه عبا بدلا من الماء. في الظهيرة يأتى على خروف كامل. لا يترك حتى الغضاريف، كانت حركة يديه فريدة في تفكيك اللحم من العظم، خاصة الرأس، ويعقبه بطشت من الأرز المطهو بالدهن، في العشاء يكتفى بسخل صغير ومرق كثير وفطائر وصينية كثافة بالجبن.

لم يستطع أحد منافسته فى قدرته على الأكل، أو فحولته  
التي ذاع أمرها، وعلمه بالجبل وما يخفى، لكن بعد تجاوزه  
المائة وقع أمر غريب، إذ تردد أن صبيًا هولنديا اعتادت أمه أن  
تصحبه عند مجيئها إلى البتراء فى مهام علمية تفوق عليه،  
دعاهما ضبعان، كان له معرفة قديمة بالأم، عندما بدأ الغذاء  
فوجيء القوم بالولد يأكل أسرع من ضبعان، استمرا معا حتى  
توقف والولد لم يكف، التهم لية خروف مسلوقة فى السمن. لم  
يبد انزعاجا انما ريت كتف الصبي بحنوزائد، وأعطاه أعشابا  
تنبت فى الشقوق ليتناولها إذا شعر بوهن، أو ألم به ضيق.

ظهر بصبحة الإنجليزية فى السيق. قابلهما واحد من الأئلة  
القدامى، بدت المرأة متألقة تضىء، تتوثب فرحة وبهجة. كأنها  
ارتدت صبية لم تمس، والأغرب أنها كانت تتكلم العربية. تفهم  
ما تسمعه وتجيّب. هى التى لم تعرف حرفا واحدا قبل دخولها  
السيق بصحبته!

قيل إنها عرضت عليه قصرا من ثلاثة طوابق تحيطه حديقة  
يرمح فيه الخيل، وسفينة، لكنه أبى أن يصحبها، لم يقدم كما  
فعل البعض عندما تزوجوا بأجنبيات، وما جرى لزواج  
السويسرية معروف، بقى صامتا، كسيرا بعد عودته، انفراد  
بحاله عن أهله حتى عافه الناس.

قال أحمد أن الماليزية أمرها مختلف، عادت بعد شهور  
سنة، أعد كل شئ عند اتصالها به من عمان. صاحبها إلى

مغارة قرب النير، عند ذروة الجبل، مطلة على وادى عرية. عند الشروق وقبل الغروب يمكن رؤية البحر بوله من الافق. مكثا خمسة أيام، لم يفارقا موضعهما إلا للاستحمام فى العين الجارية، فى كل لحظة كان يتذكر جده، بل يتوقع ظهوره فجأة أمامه لينصحه أو ليقص عليه بعضاً من تجاربه.

لماذا يشعر الآن بنظرات ضبعان؟، يكاد يوقن أنه ليس بمفرده فى السيق، أربعة عيون موزعة، عينا ضبعان وعينا كلوبين، يحاول نفى الخاطر عن ذهنه، كأنه يخشى اجتماعهما فى تداعيات أفكاره؟ أو يلتقيا عبر مخيلته. مع أن ضبعان اختفى تماما ولم يعد يسعى. وهى لم تصل بعد.

يفار عليها؟

نعم..

لكم استفسر خفية وعلانية. إلى أى حد تصل علاقتها بهذا أو ذاك؟. ما مضى لا شأن له به، لكن ماذا عن الحاضر؟ عن الآتى؟

لم تفتتها هواجسه. قالت فجأة أثناء تحديقهما إلى النهر:

«لم أرتبط بإنسان أثناء سفرى كما جرى معك»

يتطلع إلى تراكمات الصخور الشاهقة، تتقارب فى الأعلى حتى لا يبدو إلا شق نحيل من السماء، يطبق عليه المكان، لو جاءه مباشرة لظنها الإحاطة الكاملة، لا مخرج، على السفح

الايمن خط طويل أقتم يبدأ من القمة غير المنظورة. خيوط من الماء. تتساقط القطرات فوق صخرة مستوية، تتشربها الأرض الرملية. ومن الصخر الوعر، تنبت شقائق النعمان والبنفسج وزهور صغيرة لم ير مثلها من قبل، عند نقطة معينة يبدأ جذر نخيل. يطل ثم يمضى صوب مركز الجاذبية ليبدأ ساق شجيرة تنمو بالقلوب. قال أحمد إن جده كان يتعهدا، يرعاها، سماها «دلدل».

قال ضاحكا إن القوم يعتقدون أنه ما من إنسان يمر بها أو يمكث قريبا إلا وتسرى الحرارة عنده، يتقد بالرغبة، من الشقوق النحيلة تنبثق أعشاب شتى. كان ضبعان يقطفها بعناية ويعالج بها المرضى ممن استعصى على الأطباء شفاؤهم.

ضبعان لم يذهب إلى طبيب قط. لم يتناول حبة أسبرين ولم تنغرس في جسده إبرة حقنة، لم يغسل ثيابه إلا بصابون طبيعي مخلوط بزيت الزيتون. لم يتمدد إلا فوق حرام من صوف الغنم فوق الأرض مباشرة. كان يغزل صوف عباءته بنفسه ويشرف على نسجه في معمل قريب أغلق منذ عشرين سنة ثم أعيد فتح المكان ليتحول إلى معرض لمشغولات المنطقة التي يطلبها السياح.

لم يرقد ضبعان فوق سرير قط، كان ينام هنا، في أى مكان بالسائق داخل الجبل، لم يخش الزواحف، كان قادرا على

الإمساك بأشد أنواع الزواحف فتكا، كان العقرب الأسود والعنكبوت الأحمر ذو الوبر الأحمر يجرى فوق ذراعه ويقرصه مرسلا السم الزعاف إلى شرايينه فلا يعبا، أما الطريشة والحنش الأسود والرقطاء وحية الإسفنج وتعبان الرمل فلا يقتربون منه. تتوقف سائر الهوام على بعد خطوتين بشريتين.

حدث أثناء صعوده المرتفع الصخري المشرف على خزانة فرعون أن قفزت تجاهه أفعى رقطاء كانت تلبد بين أغصان شجرة شيوخ. لدغت رقبته، تراجع مرافقوه فرعين، لكن سرعان ما تماظمت دهشتهم وهم يرونه واقفا، راسخا، متعلقا إلى الأفعى التي راحت تتلوى بين قدميه وكأن مسا أصابها. بقدميه العاريتين سحقها.

لم يمش فوق هذه الأرض الصعبة مرتديا حذاء قط. قدماه ضرب بهما المثل في ضخامتهما. مع مشيه فوق الصخر، في الحر والبرد، تقدد جلده، أصبح طبقة قاتمة. لو داس جمرا مشتعلا لما بدا على ملامحه جزع.

قيل في استعصائه على السموم إن أمه التي توفت بعد بلوغها التسعين أرضعته مقادير معينة من سموم الأفاعي مع حليبها، وأنها حرقت عقريا. وضعت رماده على ثديها قبل أن تلقمه حلمتها.

قيل إنه يضع حجابا مثلثا تحت إبطه يقيه كافة أنواع الدسرات الضارة. وحجاب تحت الأيمن يمنع الرصاص

والشظايا من اختراق جسده. عندما شارك في الحرب ضد الأتراك أثار رعباً. كان يتقدم واقفاً والرماس يرتد عنه. والشظايا تعيد عنه.

قال أحمد إن جده كان يتسلق نرى الجبال، جبل النير، جبل المنيع، جبل هارون، كان يبدو للناظرين فوق أعلى نقطة من جبل خبته، لم يبلغها أحد بعده. في نروة العاصفة الثلجية يتجرد تماماً من ثيابه، يدلك جسده بالثلج قبل بلوغ ندفه سطح اليايسة، عادة أتقنها من امرأة روسية أقامت بالناحية منذ سبعين عاماً، كانت هارية من الثورة، لم تمكث طويلاً، لكنه يذكرها دائماً وكأنه عرفها بالأمس.

أما عن قدرته وفحولته فتروى حكايات عديدة وأقاويل بلا حصر عن تمكنه وصبره على النساء وفهمه كلا منهن، أما غصوه فلا مثيل له. حتى أنه إذا نام على ظهره وانفط يظن الناظر من بعيد أنه عامود متين أو نصب غامض ظهر في الفراغ فجأة، لم تتحدث امرأته عن حياتها معه. حتى لأقرب صديقاتها اللواتي اعتدت أن يفضفضن ويتناولن أدق شئونهن. لكن بعضهن يؤكدن أنه كان يترفق بها، ويتكىء على راحتيه رافعا نفسه عن الأرض حتى لا يفقا رحمها. أما هؤلاء النسوة الأجنبية فلا يعرف أحد كيف احتملته، لكن ما من أنثى عرفتة إلا وتعلقت به، حاولت العودة إليه ولو كانت في آخر العالم. كثيرات أنجين منه أطفالا. يتوزعون الآن في أقطار الدنيا. هذا

الولد الهولندي الذي تفوق عليه في الأكل لابد أنه من هلبه.

بعد اختفائه جاء رجل في الستين، عيناه ضيقتان، وجنتاه عريضتان، خليط من ملامح عربية وأخرى يابانية أو صينية. سأل عن أبيه ضبعان.

في عام آخر شاب من فارس. وقف عند مدخل السيق وقرأ قصيدة بالفارسية ينادي فيها أباه أن يظهر، ثم بكى ومضى. وثالث لسانه عربي مبين من المغرب. ورابع من جزيرة بورتريكو. وخامس من جزيرة تقع عند آخر حد العمار قبل بلوغ القطب الجنوبي، وسانس من تشاد، وسابع. وتاسع.. لا يمر شهر إلا ويغدو رجل أو امرأة، شيخ أو شاب، يسألون عنه. وفي عيونهم شوق، وحيرة، وسؤال.

كانوا يتوقفون أمام السيق، تماماً كما توقف ضبعان بعض الوقت. قبل أن يلجه متمهلاً، هكذا يعبرونه، من نقطة معينة داخلة لا يعرفها أحد بدأ تسلقه الصخر، انتهى إلى حجرة فرعون كما يؤكد البدول سكان الكهوف.

كانوا يتوقفون في مواجهة المقبرة، المعبد، يتطلعون إلى الحجرة المحفورة في بروز من الصخر الوعر، يتطلعون صامتين، أو يذرفون دموعاً، بعضهم ينادي، تعارف عدد منهم، تردد في الذاكرة أنهم سيفقدون في يوم معين يوافق غياب، كل منهم أخبر عن هاتف قوي أتاه في المنام، ناداه بلفة من منشأ وأقام بينهم ودعاه للمجيء إلى البترا. هؤلاء من استطاعوا

القدوم، أما الذين لم يتمكنوا فلا يدرى أحد عددهم بالضبط، أو جهاتهم.

يكاد يسمع نبر صوتها الهادئ عندما سأله بعد أيام ثلاثة من تصرّيحها برغبتها:

«لماذا كتمت انزعاجك عندما أخبرتك برغبتى فى إنجاب طفل منك؟»

يفاجأ، إذن.. من طباعها إثارة الموضوعات الحرجة فى أوقات غير متوقعة. ويهدوء لا يوحى بخطورة ما تناوله. فى مواجهتها لم يكن قادرا على تمويه مشاعره. قال إنه يفكر منذ تصرّيحها، وأنه مضطرب، أو مات:

«أعرف . إننى أشعر بك...»

قال إن ذلك بالنسبة له غريب، لم يتزوج لظروف شتى، لم تمض حياته فى مسارها الطبيعى. تعايش مع الأمر. خاصة مع تقدمه وطلبه السنين طيا. أو احتواء الوقت له، لا يدرى أيهما يفنى الآخر؟

تبدو له فكرة إنجاب طفل بدون زواج غريبة، كيف يسعى بعيدا عنه؟

قالت إن مجيئه ليس مشكلة بالنسبة لها، فى بلادها ما يعينهم مجيء الطفل، وليس مهما كيف جاء؟

لمس معصمها، قال:

«ولكنها مشكلة بالنسبة لى... مشكلة هنا»

قالت إنها تدعوه، ما عليه إلا أن يشد رحاله ويستقر معها،  
نظر إليها صامتا، حرجا، يتحاشى وقوع المبارزات الكلامية.

تعرض عليه الإقامة، الانتقال وهى التى تسافر دائما. لماذا  
لا تجيء هى عنده، إلى موطنه؟.

لا يمكنه أن يخلع نفسه هكذا بسهولة. أن يحيد بأيامه وقد  
مضى معظمها. هى لا تقدر وهو لا يمكنه. مع أن ظروف كل  
منهما متشابهة فى دائرة الوطن والإقامة. يوم جرى حوار مع  
صاحب له.

قال صديقه إن الإنسان بعد رحيله يتحول إلى تراب، وإنه لا  
يطبق أقداما أجنبية تطؤه عندما يصبح جزءا من الأرض. إذا  
كان الأمر حتمى فقومه أفضل. لهذا رفض الهجرة.

لم يصرح لها بذلك، ما يشده أمور تتعلق بأيامه وما  
سيتلوها من عدم، عندما تشأغل بالنظر إلى طيور بيضاء ذات  
مناقير خضراء تحط فوق النهر، قالت:

«نوع نادر لا يجيء إلا فى هذا الوقت...»

ثم قالت:

«لا تقلق .. لن أنجبه إلا إذا اقتنعت..»

ضحكت.

ض إلا شتاء.

كان يوم مفارقتة بيته فى وادى موسى إلى مغارته مشهودا،  
بعده يبدأ نزوح القوم من قبيلة النوافلة، لكل كهفه، يتوارثه أبا  
عن جد، يدخلون إلى بطن الجبل، هذا عرف قديم.

حدث أحمد فقال إن امرأة إستراالية، تتقن العربية وتتردد  
على البتراء لدراسة نقوشها وفك رموزها تسلقت الدروب  
العتيقة، لكنها حادت فى سعيها، وصلت إلى صخرة معلقة  
يصعب الوصول إليها، صرخت. . تطلع إليها القوم من الوادى.  
كيف وصلت إلى هذا الموضع الذى لم يظهر عنده إنس ولا  
حيوان؟

جاء ضبعان. ضرب كفا بكف عندما راها.

«متى بدأ صعودها؟»

قالوا إنها اختفت منذ الأمس. ولا يدري أحد كيف وصلت  
هناك؟ قال إن هذه الصخرة التى يراها الجميع قريبة أبعد مما  
يتصور أى إنسان، إنه فى حاجة إلى أربع عشرة ساعة ليصل  
إليها. ربما لن تقدر على المكث. لو أغمضت عينيها ستسقط  
موضع لا يتسع إلا لشخص، لكنه سيبدأ قاصدا الصخرة  
الأعلى، يصلها بعد ساعتين. من هناك ينلى بحبل متين إليها،  
تتعلق به فيرفعها.

طلب ضبعان منهم أن يصرخوا، أن يتأدوها باستمرار حتى

لا تغفوا، لو نال منها الإعياء وغفت فهلاكها مبين. لمدة ساعتين لم يكف الرجال والنساء.. حتى الأطفال، قرعوا الطبول، والأواني النحاسية، لا يمكن نسيان ذلك. بعد ساعتين بالضبط، تماما كما أخبر، ظهر في ضوء القمر، عند النقطة التي حددها، كان باستمالة الجميع رؤيته رغم شحوب النور وكثافة الظلال. بدا أطول وأعرض، زعق عليها، ناداها بلسانها. ألقى حبلا مجدولا، متينا. تعلق به، بيد واحدة راح يرفعها بدون أن ينحنى، كان تجاوز المائة وقتنذ.

لماذا يلح عليه ضبعان؟

لماذا يخيّل إليه أنه متطلع صوبه؟

هل يعرف أبناء الموزعين في شتى أنحاء الدنيا؟. هل حن إلى رؤية أحدهم؟. هل ينزل من مخبئه المجهول ليظهر أمامه فجأة، يقولون إنه ظل محتفظا ببهائه القديم، لم يعرف الشيب طريقه إلى شعرة واحدة من رأسه، لم تره أنفى إلا رغبته، كان القوم يخشون على بناتهم ونسائهم منه، رغم علمهم أنه لا يمكن أن يرفع النظر إلى واحدة منهن، لكن النفس راغبة، طامعة، بعد غيابيه شددوا عليهن خشية أن يتبعه بعضهن، يؤكد معظمهم أنه مقيم في حجرة فرعون. وأن الأهالي يصغون إلى تردد أنفاسه وتقلبه في الوقت.

للهماء صفيّر غريب عند هذا المنحنى الضيق. يكاد شطرا الجبل أن يتعاسا عند قمتهما. حنره صاحبه من انهيارات

مفاجئة. وحوش يمكن أن تظهر فجأة. حدث أحمد فقال إن صيادا عاش منذ خمسة وسبعين سنة. كان مشهورا بقتص الغزال والكباش البرية. فى أحد الأيام انحنى يذبح أحدها، فجأة.. ظهر حيوان أمامه. يشبه النمر لكنه ليس نمرا. تمالك أعصابه.

اقتطع جزءا من الشاة رماء إليه. ما تبقى وضعه فى جوال حملة مبتعدا بخطى ثابتة غير هياب، فيما بعد. فى كل مرة يصعد إلى الجبل. أو ينزل إلى الوادى، لحظة ذبحه الفريسة يفاجأ بالحيوان أمامه، ينتظر نصيبه، لم يخلف مرة قط، استمر ذلك سنوات، حتى طلع نهار لم يستيقظ فيه. لحظة دفنه فوجئ القوم. صراخ يتردد فى الجبال. فزعوا، راوا الحيوان فوق أعلى نقطة من السيق. كان مشرفا على حفرة القبر من عل، وفى عوانه مس أنمى غريب، نصحبهم ضبعان الا يتصدوا له، لمدة أربعين يوما لم ينقطع نواحه، وقرب الفجر ينزل ليجثو عند القبر، يتحول صراخه إلى عويل غامض، يخشع لسماعه الكافة!

قال أحمد:

«لا تحد عن السيق، لا تعرج هنا أو هناك مهما لاح لك من إغراء...»

لو ظهر ضبعان الآن، لو وقع ما يتمناه ولا ينتظره وراها مقبلة من الناحية الأخرى. أو من خلفه سيتقدم صوبها، ستنتظر

إلى عينيهِ، يثق أنها ستفهم. ما رغبته يمكنه تحقيقه الآن، في هذه الثنايا متسع للخلوة، لم يفت الوقت بعد. سيقيمان هنا حتى يقع التاكّد من زرع البذرة ويثّ النواة.

تتنوع ألوان الصخور، اللون الوردى غالب، عبثا حاول أن يعرف معنى كلمة السيق. قال أحمد، وقال الآخرون إنه شق بين جبلين. رحم كوني، طبيعى، رحم الأرض التى لا يمكن الإحاطة بأطرافها، تتردد فيه أصداء الطقوس القديمة، والام القرابين، والأغاني التى تمايل القوم لسماعها يوما، وقدم الرسل. وخروج السفارات إلى ممالك الدنيا.

ترق الصخور، يختلط اللون الوردى بأطياف زرقاء. يصبح لراها ملمس الحرير.

يتوقف بغتة..

بقدر ما روعته المفاجأة، بقدر ما أدركه ذلك الوهن الغامض، الغريب، واليقين أن ثمة من يرقبه، وأنه يتأهب للمس، لكن لا يمكنه النظر إلى وراء. لم يكن باستطاعته النظر إلا صوب الأمام.

انفراجة الصخور الضيقة. الشق يبلغ منتهاه. مهبل ارضى. يسده الفعل البشرى. واجهة وريدية من حجر قديم. مستوية.

يصله صخب ضوئها القوى، الهادئ، انبثاقها عجيب، محسوب.

من الظلمة إلى النور أم من العتمة إلى الضوء؟، لم ينتقل من  
موضع إلى آخر، إنما من وقت إلى وقت، من حال إلى حال، لا  
يمت ما يراه إلى أى صورة أطلع عليها أو قرأ عنها، يحجب  
الحضور الوردى المتصل بالسيق كافة ما عداه، يتوقف، بينما  
يبدأ عنده ما يشبه الحلق إلى أعلى، إلى فراغ غامض يحده  
السيق الممتد..

مارس ١٩٩٢